حديث: (احفظ الله يحفظك)

دراســــة عقــــــدية

د. محمد بن عبد العزيز بن أحمد العلي

أستاذ مساعد بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة - بكلية أصول الدين-الرياض

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث

هذا البحث هو شرح لحديث رسول الله ﷺ في وصيته لابن عباس رضي الله عنـهما حينما قال له وهو رديفه: (يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظـك، احفـظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحـف)، وفي رواية: (احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن مـا أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصـبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً) .

وهذا الحديث، وإن سبق شرحه قديماً وحديثاً، إلا أني لم أقف على من درسـه دراسـة عقدية تبرز ما فيه من مسائل كثيرة تتعلق بأساس الدين وأصله، إذ فيه من المسائل المتعلقـة بألوهية الله وربوبيته وأسمائه وصفاته ونحو ذلك مما يؤكد الحاجة الضرورية لدراسته .

ولهذا كتبت فيه هذا البحث الذي بدأته بمقدمة ذكرت فيها أهميته وسبب اختيـاره، ثم كتبت تمهيداً ضمنته ذكر الحديث برواياته، ثم شرحه إجمالاً، مع بيان مكانتـه ومـا قالـه العلماء فيه، ثم قسمت البحث إلى اثني عشر مبحثاً، جعلت كل فقرة من فقراته في مبحث خاص، ثم ختمته بخاتمة ذكرت فيها أهم نتائجه، ثم وضعت فهرساً لأهم المصادر والمراجـع التي أفدت منها .

وإني لأنبه إلى أن هذا الحديث لا يزال بحاجة إلى عناية خاصة بالتأليف لما اشتمل عليـه من مسائل عظيمة .

أسأل الله إخلاص النية، وصلاح العمل وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم.

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلـى آله صحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد.

فإن رسول الله ﷺ أعطي (فواتح الكلام وجوامعه وخواتمه) ([١]) ، ويتضح ذلك لكل من تتبع سنته واقتفى أثره، وكان ﷺ حريصاً كل الحرص على نجاة أمته، بتعليمها وتربيتها التربية النبوية العقدية القويمة، يفعل ذلك في كل أوقاته، حتى أثناء تنقله من مكان إلى آخر، كما في أحاديث، منها وصيته ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما عندما كان رديفه على الدابة، وهو موضوع هذا البحث، وهذا الحديث العظيم وإن كان موجهاً من رسول الله ﷺ إلى ابن عباس رضي الله عنهما إلا أنه وصية عظيمة القدر للأمة جمعاء، وإرشاد نبوي لكل من أراد النجاة في الدنيا والآخرة.

هذا وقد اعتنى العلماء بهذا الحديث، قديماً وحديثاً، شرحاً وتفصيلاً، فتتبعت ما كتب فيه فرأيت أنه بحاجة إلى دراسة عقدية تظهر ما فيه من مسائل عظيمة تتعلق بأشرف العلوم وأجلها قدراً، وأوجبها مطلباً، وهو علم التوحيد، لأنه مفتاح الطريق إلى الله ﷻ وأساس الشرائع قال تعالى : ﴿ ولَقَد بعثْنا فِي كُلِ أُمةٍ رسولاً أَنِ اعبدواْ اللّه واجتنِبواْ الطاغُوت ﴾ ([٢]).

فإن كثيراً مما كتب في شرح هذا الحديث اعتنى ببسط مسائله الوعظية، وفي هذا خير عظيم، والأمة بحاجة ماسة إلى من يذكرها ويعظها بما جاء في كتاب الله تعالى وثبت في سنة رسوله ﷺ، إلا أن التركيز على مسائله العقدية من أهم المهمات.

وهذا لا يعني أن من كتب في شرحه أغفل مسائل العقيدة لكنه أجمل في ذكرها مقارنة مع ما في الحديث من مسائل كبيرة.

ومن أفضل ما قرأته المملكة العربية السعودية ما كتبه أسلافنا شرح ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ) في كتابه (شرح الأربعين حديثاً النووية)، وشرح ابن رجب (ت ٧٩٥ هـ) في كتابه (جامع العلوم والحكم) و (نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس) وغيرهما، وبخاصة ممن كتب في شرح الأربعين النووية.

إلا أنه كما ذكرت آنفاً رأيت أن الحديث بحاجة إلى دراسة عقدية تبرز ما فيه من مسائل أجمل في ذكرها، وبخاصة أنه قد تناوله بالشرح ممن هو ليس على عقيدة السلف، فظهرت آثار ذلك في شرحه.

وقد بدأت البحث بمقدمة ذكرت فيها أهمية وسبب الكتابة في هذا الموضوع، ثم تمهيداً ذكرت فيه الحديث ومكانته وشرحه إجمالاً.

بعد ذلك قسمت البحث إلى اثني عشر مبحثاً، كل فقرة في الحديث جعلتها في مبحث مستقل.

ثم ختمت هذه الدراسة بخاتمة كتبت فيها أهم ما توصلت إليه إجمالاً.

أسأل الله إخلاص النية وصلاح العمل وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله

وصحبه أجمعين.

التمهيد :

متن الحديث:

عن أبي العباس عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما – قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال : (يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظِ الله يحفظك، احفظِ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفّت الصحف) ([٣]).

وفي رواية: (احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفْك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك،واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً).

وفي رواية: (يا فتى ألا أهب لك ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنه قد جف القلم بما هو كائن، واعلم بأن الخلائق لو أرادوك بشيء لم يردك الله به لم يقدروا عليه، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً) ([٤]).

مكانة الحديث:

حديث ابن عباس هذا حديث عظيم – وكل أحاديث الرسول ﷺ عظيمة وشريفة - فهو أمر نبوي كريم بحفظ الدين، وبيان لنتيجة ذلك، وهو نصر الله وتأييده وحفظه لمن حفظ دينه، وقد اشتمل هذا الحديث على مسائل عقدية تعد أصولاً عظيمة ، من الإيمان بالله والإخلاص له بالعبادة والتوكل عليه والاستعانة به ، والقضاء والقدر ، والاتباع لما جاء به رسوله ﷺ.

ومما يدل على مكانته اختيار النووي (ت ٦٧٦هـ) له أن يكون ضمن الأربعين حديثاً التي جمعها، وكان رقمه التاسع عشر، وذكر سبب اختياره لها بقوله : ((وقد استخرت الله تعالى في جمع أربعين حديثاً ...، ثم من العلماء من جمع الأربعين في أصول الدين، وبعضهم في الفروع، وبعضهم في الجهاد، وبعضهم في الزهد، وبعضهم في الآداب، وبعضهم في الخطب، وكلها مقاصد صالحة، رضي الله عن قاصديها، وقد رأيت جمع أربعين أهم من هذا كله، وهي أربعون حديثاً مشتملة على جميع ذلك، وكل حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدين، قد وصفه العلماء بأن مدار الإسلام عليه، أو هو نصف الإسلام، أو ثلثه، أو نحو ذلك... ، وينبغي لكل راغب في الآخرة أن يعرف هذه الأحاديث لما اشتملت عليه من المهمات، واحتوت عليه من التنبيه على جميع الطاعات، وذلك ظاهر لمن تدبره)) ([٥]).

كما اختاره النووي أيضاً ليكون ضمن كتابه القيم (رياض الصالحين)، ووضعه في الباب

الخامس، باب المراقبة، من الكتاب الأول، فكان رقمه الثاني والستين من جملة الأحاديث التي بلغت ١٨٩٦ حديـــثاً، وقد قال في مقدمتها: ((فرأيت أن أجمع مختصـراً مـن الأحاديث الصحيحة، مشتملاً على ما يكون طريقاً لصاحبه إلى الآخرة، ومحصـلاً لآدابـه الباطنة والظاهرة، جامعاً للترغيب والترهيب، وسائر أنواع آداب السالكين، من أحاديـث الزهد، ورياضات النفوس، و ذيب الأخلاق، وطهارات القلـوب وعلاجهـا، وصـيانة الجوارح، وإزالة اعوجاجها،وغير ذلك من مقاصد العارفين)) ([٦]).

وقد وجد هذان الكتابان قبولاً عظيماً عند العلماء، وطلبة العلم بعد النووي، إذ كثـر انتشارهما، واعتني ما بالشرح والتعليق.

وقد اعتنى العلماء ذا الحديث خاصة، وشرحوه، وبينوا ه لته، ومن ذلك ما ذكـره ابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ) حيـث قـال: ((هـذا الحـديث يتضمـن وصـايا عظيمة،وقواعد كلية من أهـــم أمــــور الدين، وأجلها، حتى قال الإمام أبو الفرج في كتابه (صيد الخاطر): تدبرت هذا الحديث، فأدهشني، وكدت أطيش، فوا أسفي مـن الجهل ذا الحديث، وقلة التفهم لمعناه)) ([٧]).

وقـال ابن حجـــر الهيتمي (ت ٩٧٤هـ) بأن هذا الحديث اشــــتمل علـى ((هذه الوصايا الخطيرة القـــدر، الجامعـــــة من الأحكام والحكم والمعارف ما يفوق الحصر)) ([٨]).

وقال ابن عثيمين: ((فهذا الحديث الذي أوصى به عبد الله بن عباس ينبغي للإنسان أن يكون على ذكر له دائماً، وأن يعتمد على هذه الوصايا النافعة، التي أوصى ا النبي ﷺ ابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما)) ([٩]).

شرح الحديث إجمالاً:

قوله: (كنت خلف النبي ﷺ) أي راكباً معه، ورديفه.

قوله: (فقال: يا غلام...) قال له: (يا غلام)؛ لأن ابن عباس رضي الله عنـهما كـان صغيراً، فإن الرسول ﷺ توفي وعمر ابن عباس ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة سـنة ([١٠]).

قوله: (إني أعلمك كلمات) ذكر له ذلك قبل ذكر الكلمات، ليكون ذلك أوقـــع في نفســـه، وجاء ا بصيغة القلّة؛ ليؤذنه أ ا قليلة اللفظ؛ فيسهل حفظها([١١]).

قوله ﷺ : (احفظ الله) أي احفظ حدوده، وحقوقه، وأوامره ونواهيه.

وحفظ ذلك يكون بالوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتنـاب، وعنـد حدوده فلا يتجاوز ما أمر به، وأذن فيه إلى ما ى عنه، فمن فعل ذلك فهو من الحافظـين لحدود الله.

وأعظم ما يجب حفظه التوحيد، وسلامة العقيدة، فهي الأصل والأساس لبقية أركـان الإيمان والإسلام، التي يجب حفظها، بالإيمان ا قولاً وعملاً واعتقاداً، إخلاصاً لله تعـالى،

واتباعاً لما جاء به رسول الله ﷺ.

قال ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ) في معنى (احفظ الله): ((ومعناه كن مطيعاً لربك، مؤتمراً بأوامره، منتهياً عن نواهيه)) ([١٢]).

وكذلك من حفظ الله أن يتعلم المسلم من دينه ما يقوم به عباداته ومعاملاته، ويدعو به إلى الله ﷻ.

وقوله: (يحفظك) يعني أن من حفظ حدود الله، وراعى حقوقه حفظه الله، في الدنيا من الآفات والمكروهات، وفي الآخرة من أنواع العقوبات، جزاء وفاقاً.

فكلما حفظ الإنسان دين الله حفظه الله.

وحفظ الله لعبده الحافظ لدينه، يكون في أمرين:

الأول: حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه، فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفّاه على الإيمان.

هذا هو الأمر الأول، وهو أعظمهما وأشرفهما، وهو أن يحفظ الله عبده من الزيغ والضلال؛ لأن الإنسان كلما اهتدى زاده الله هدى، وكلما ضل ازداد ضلالاً.

الثاني: حفظ الله للعبد في مصالح دنياه، كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله، ومن حفظ الله في صباه وقوته حفظه الله في حال كبره وضعف قوته، ومتعه بسمعه وبصره وحوله وقوته وعقله([١٣]).

إذن من حفظ حدود الله حفظه الله في دينه، وفي بدنه وولده وأهله وماله.

قوله ﷺ: (احفظ الله تجده تجاهك) أي احفظ الله أيضاً، بحفظ حدوده وحقوقه، وشريعته بالقيام بأمره واجتناب نهيه.

(تجده تجاهك)، وفي رواية: (أمامك)، ومعناهما واحد، أي من حفظ حدود الله وجد الله تجاهه وأمامه، في كل أحواله حيث توجه، يحوطه وينصره ويوفقه ويسدده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ ([١٤]).

نعم من حفظ الله وجد الله أمامه يدله على كل خير، ويذود عنه كل شر، ولا سيما إذا حفظ الله بالاستعانة به؛ فإن الإنسان إذا استعان بالله، وتوكل على الله كان الله حسبه وكافيه، ومن كان الله حسبه؛ فإنه لا يحتاج إلى أحد بعد الله، فلن يناله سوء. ([١٥])

يقول ابن دقيق العيد في شرح هذه العبارة: ((أي اعمل له بالطاعة، ولا يراك في مخالفته؛ فإنك تجده تجاهك في الشدائد)) ([١٦]).

قوله ﷺ: (إذا سألت فاسأل الله) سؤال الله تعالى هو دعاؤه والرغبة إليه، فدل هذا التوجيه النبوي الكريم على أن يسأل الله ﷻ، ولا يسأل غيره، فسؤال الله ﷻ دون خلقه هو المتعين؛ لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على رفع هذا الضرر، وجلب المنافع، ودفع المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده.

والله سبحانه يحب أن يسأل، ويلح في سؤاله، والمخلوق بخلاف ذلك، يكره أن يسأل، ويحب أن لا يسأل؛ لعجزه وفقره وحاجته([١٧]).

قوله ﷺ : (وإذا استعنت فاستعن بالله) دل هذا الحديث على أن يستعان بالله دون غيره، وأن لا يعتمد على مخلوق، فالاستعانة هي طلب العون، ولا يطلب العون من أي إنسان ((إلا للضرورة القصوى، ومع ذلك إذا اضطررت إلى الاستعانة بالمخلوق فاجعل ذلك وسيلة وسبباً، لا ركناً تعتمد عليه ...)) ([١٨]).

يقول ابن رجب : ((وأما الاستعانة بالله ﷻ دون غيره من الخلق؛ فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا لله ﷻ، فمن أعانه الله فهو المعان...، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات)) ([١٩]).

قوله ﷺ: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك). المراد أن كل ما يصيب الإنسان في دنياه، مما يضره أو ينفعه، فهو مقدر عليه، فلا يصيب الإنسان إلا ما كتب له من ذلك في الكتاب السابق، ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعاً.

فالرسول ﷺ يخبر في هذا الحديث أن الأمة لو اجتمعت كلها على نفع أحد لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، وإذا وقع منهم نفع له فهو من الله تعالى؛ لأنه هو الذي كتبه، وكذلك لو اجتمعوا على أن يضروا أحداً بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه([٢٠]).

ولهذا جاء في الحديث: (إن لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه) ([٢١]).

قوله: (رفعت الأقلام وجفت الصحف) هذا إخبار من الرسول ﷺ عن تقدم كتابة المقادير، وأن ما كتبه الله فقد انتهى ورفع، والصحف جفّت من المداد، ولم يبق مراجعة، فما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك([٢٢]).

قوله ﷺ: (واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً) يعني أن ما أصاب العبد من المصائب المؤلمة المكتوبة عليه، إذا صبر عليها نصره الله، وجعل في صبره خيراً كثيراً.

يقول صاحب شرح رياض الصالحين في شرح هذا الحديث: ((يعني اعلم علم اليقين أن النصر مع الصبر، فإذا صبرت، وفعلت ما أمرك الله به من وسائل النصر ؛ فإن الله تعالى ينصرك .

والصبر هنا يشمل الصبر على طاعة الله ، وعن معصيته ، وعلى أقداره المؤلمة)) ([٢٣]).

قوله : (وأن الفرج مع الكرب) أي كلما اشتدت الأمور واكتربت وضاقت؛ فإن الفرج من الله قريب ، يقول ابن حجر الهيتمي : (... (وأن الفرج) يحصل سريعاً (مع الكرب) فلا دوام للكرب ، وحينئذ فيحسن لمن نزل به أن يكون صابراً، محتسباً، راجياً سرعة الفرج مما نزل به، حسن الظن بمولاه في جميع أموره، فالله ﷻ أرحم به من كل راحم، حتى أمه وأبيه، فهو ﷻ أرحم الراحمين)) ([٢٤]).

وقوله: (وأن مع العسر يسراً) أي أن كل عسر فإن بعده يسراً، بل إن العسر محفوف بيسرين، يسر سابق، ويسر لاحق، لقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ([٢٥]). فالعسر لا يدوم لمن احتسب وصبر، وعلم أن ما أصابه بمقدور الله تعالى، وأنه لا مفر له من ذلك، واستقام كما أمر ربه؛ إخلاصاً وحسن اتباع([٢٦]).

المبحث الأول

في قوله ﷺ : (يا غلام : إني أعلمك كلمات)

مما يؤخذ من هذا الجزء في حديث الرسول ﷺ الأمور التالية:

١- وجوب تعليم الناس العقيدة الصحيحة، وتربيتهم عليها، وعل العلم النافع، ويكون ذلك بأسلوب مختصر، وكلم جامع واضح، فلو تأملت هذا الحديث لوجدته جامعاً لمسائل عقدية كثيرة بأسلوب موجز.

٢- الحرص على تربية الناشئة على العلم النافع، ويبدأ بتربيتهم على العقيدة الصافية الخالصة؛ فإن الرسول ﷺ وجه هذه الكلمات النافعات إلى ابن عباس وهو صغير؛ إذ قال له : (يا غلام: إني أعلمك كلمات)؛ ليتربى الشاب المسلم على معرفة الله وتوحيده، وحفظ حدوده، يلجأ إلى الله في الرخاء والشدة، ويسأله ويستعين به، ويتوكل عليه ﷻ، فيصبح شجاعاً مقداماً؛ لأنه يعلم أنه لا يملك أحد من البشر له نفعاً ولا ضراً إلا بإذن الله تعالى، ولأن الله معه ينصره ويؤيده وييسر له أموره، ما دام متمسكاً بشرع الله إخلاصاً واتباعاً.

فعلى الجميع الحرص على غرس الإيمان في نفوس الأبناء، وتربيتهم على فهم أصول الإيمان، والعمل بأحكام الإسلام، وتعويدهم على المراقبة والمحاسبة منذ الصغر، قبل أن تصلهم الفلسفات الإلحادية والشبهات البدعية والشهوات المغرضة، وغير ذلك مما تشنه تلك الحملات المسعورة من حرب ضروس ضد شباب الأمة ذكوراً وإناثاً، مرة باسم التثقيف، وباسم التسلية والترفيه مرات أخرى.

٣- استحباب تشويق المتعلم، و يئته بلطف العبارة، وتنبيهه إلى أهمية ما يلقى إليه، وإشعاره بسهولة حفظه ووعيه ليسهل عليه تلقيه واستيعابه، وبالتالي حفظه ووعيه، وبخاصة المسائل العقدية التي يحتاج إلى دقة في حفظها ونقلها، ويؤخذ هذا من فعل الرسول ﷺ عندما قال لابن عباس مقدماً له هذه المسائل: (يا غلام: إني أعلمك كلمات).

٤- ومما يؤخذ من هذا الحديث حرص الرسول ﷺ على توجيه الأمة، وتنشئة الجيل المسلم على العقيدة الصحيحة والشرع القويم، وقد قال الله تعالى في وصفه ﷺ: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

من أنفُسِكُم عزيز عليْهِ ما عَنِتم حريص عليْكُم بِالْمؤمنين رؤوف رحِيم ﴾ ([٢٧])، أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته، ويشق عليها، حريص على هدايتكم، ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم ([٢٨])، ولهذا ورد عن أبي ذر ﷺ أنه قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علماً، قال: فقال رسول الله ﷺ: (ما بقي شيء يقرب من الجنـة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم) ([٢٩]).

المبحث الثاني

في قوله ﷺ: (احفظ الله)

ومما يؤخذ في هذا الجزء ما يلي:

١- إثبات صفة الحفظ لله تعالى، أخذاً من قوله ﷺ: (احفظ الله يحفظك)، فهنا أثبت أن الله ﷻ متصف بأنه يحفظ عباده الذين يحفظون حدوده، فدل على إثبات صـفة الحفـظ لله تعالى، وأ ا تتعلـ ـ ـق بإرادته ومشيئـ ـ ـ ـته، وهذه الصفة ثابتـة لله ﷻ في القـرآن الكريم ، لقـوله تعالى : ﴿ فَاللَّهُ خير حافِظًا وهو أرحـم الـراحِمِين ﴾ ([٣٠])، وقولـه سـ ـبحانه: ﴿إِن ربي على كُل شيءٍ حفِيظ ﴾ ([٣١]).

وقد ذكر العلماء أن من أسماء الله تعالى (الحافظ) و(الحفيـظ)؛ أخـذاً مـن الآيتـين السابقتين، ومن المعلوم أن باب الصفات أوسع من باب الأسماء؛ وذلك لأن كـل اسـم متضمن لصفة، وأسماء الله تعالى إن دلت على وصف فقد تضمنت ثلاثة أمور:

أحدها: ثبوت ذلك الاسم لله ﷻ.

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنها لله ﷻ.

الثالث: ثبوت حكمها ومقتضاها([٣٢]).

مثال ذلك (الحافظ) يتضمن إثبات (الحافظ) اسماً لله تعالى، وإثبات الحفظ صـفة لـه، وإثبات حكم ذلك ومقتضاه، وهو أنه سبحانه يحفظ عباده، الذين يحفظونه.

ومن الأدلة أيضاً على تسمية الله بالحفيظ قوله تعالى: ﴿ والَّذِين اتخذُوا مِن دونِهِ أَولِياء اللَّه حفِيظٌ عليْهِم وما أَنت عليْهِم بِوكِيلٍ ﴾ ([٣٣])، وقوله: ﴿ وربك على كُلِّ شيءٍ حفِيظ ﴾ ([٣٤]).

يقول صالح البليهي (ت ١٤١٠هـ): ((الحفيظ من أسماء الله الحسنى، واشتقاقه مـن الحفظ، والحفظ لغة هو الحراسة والصيانة والحياطة، والله جل وعلا سمى نفسه حفيظـاً ... فالله تقدس اسمه هو الحافظ والحفيظ، هو تعالى على كل شيء حفيظ، أي شاهد وحـافظ، يحفظ على عباده أقوالهم وأفعالهم، فيجازي كلاً بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ...، والله تعالى من فضله ولطفه ورحمته وإحسانه يحفظ عباده المؤمنين، وهو خـير الحـافظين، يحفظهم من كل شر، ومن كل محنة وبلاء، يحفظهم تعالى ﴿ وربك على كُلِّ شيءٍ حفِيـظ﴾ يحفظهم بشرط أن يحافظوا على ما أوجب الله عليهم في شريعة الإسلام، وبشرط أن يحفظوا جوارحهم عن كل ما حرم الله...، ودعاء الله بأسمائه مشروع، وكيفيته يا غفور اغفر لي، يا

رحمن ارحمني، يا رزاق ارزقني، يا معافي عافني، ونحو ذلك، فالله تعـالى هـو الحافـظ والحفيظ ... اللهم يا حافظ ويا حفيظ احفظنا وأنت خير الحافظين)) ([٣٥]).

٢ - وجوب حفظ العقيدة، والحرص على سلامتها مما قد يشوبها، وأن ذلك أعظـم أسباب حفظ الله للعبد، كما يجب حفظ الشريعة، وذلك بالعمل بها، والدعوة إليهـا، والدفاع عنها.

فإذا كان قوله ﷺ: (احفظ الله) يعني حفظ حدوده، وحقوقه ، وأوامره ونواهيه، فـإن أعظم حقوقه توحيده في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، واتباع كتاب الله تعـالى وسـنة رسوله ﷺ، المصدرين لتلقي العقيدة، والحذر من الانزلاق مع الهوى، أو تقديم العقل علـى النص الشرعي مما أوقع كثيراً من الفرق والنحل في الشرك والبدع والمخالفات.

وحفظ العقيدة يكون بتعلمها والإيمان بها والعمل بمقتضاها،وتعليمها والدعوة إليها.

فقوله: (احفظ الله) أمر بحفظ توحيده، وأوامره ونواهيه، وحقوقه وحدوده، كما أنه أمر بحفظ الجوارح كالسمع والبصر واللسان والبطن والفرج.

ولهذا يقـــــول الله تعـــالى : ﴿ وأزلفَتِ الْجنةُ لِلْمتقِين غَير بعِيـدٍ (٣١) هذَا ما توعدونَ لِكُلِّ أوابٍ حفِيـــــظٍ (٣٢) من خشِي الرحمن بِالْغيـبِ وجـاء بِقَلْبٍ منِيبٍ ﴾ ([٣٦]) يقال للمتقين على وجـــه التهنئة: (هذَا ما توعدونَ لِكُلِّ أواب حفيظ) أي هذه الجنة وما فيها ، هي التي وعد الله لكل أواب ، أي رجـاع إلى الله ، في جميع الأوقات ، بتوحيده وذكره ، وحبه ، والاستعانة به ، (حفيظ) أي محافظ على ما أمر الله به، من توحيده وشرعه ، على وجه الإخلاص، والإكمال له على أتم الوجوه، حفيـظ لحدوده ([٣٧]).

وخصت بعض الأعمـــال بالتنصـــــيص علـى حفظهـا اعتـــنـاء بشـــــــأنها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ حافِظُواْ على الصلَواتِ والصلاةِ الْوسطَى ﴾ ([٣٨]) . وقوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمؤمِنِين يغضوا مِن أبصارِهِم ويحفَظُوا فُـروجهم ذَلِـك أزكَى لَهم ﴾ ([٣٩]) ، وقوله: ﴿والْحافِظِين فُروجهم والْحافِظَاتِ والذاكِرِين اللـه كَثِـيرا والذاكِراتِ أعد الله لَهم مغفِرةً وأجرا عظِيما ﴾ ([٤٠])، وقوله: ﴿ والذِين هم لِفُروجِهِم حافِظُون ﴾ ([٤١])، وقوله: ﴿ واحفَظُوا أيمانكُم ﴾ ([٤٢])، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله ﷺ: (من حفظ ما بين لحييه ورجليه دخل الجنة) ([٤٣])، وفي رواية: (من وقـاه الله شر ما بين لحييه، وشر ما بين رجليه دخل الجنة) ([٤٤])، وقوله ﷺ: (ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) ([٤٥]).

إذن من فعل الواجبات وترك المحرمات فقد حفظ حدود الله تعالى، ومن ثم فقد حفظ

الله، وأعظم ما أوجبه الله على عباده، توحيده، وعبادته سبحانه إخلاصاً له ، ومتابعة لما جاء به رسوله ﷺ، فهي الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق، قال تعالى: ﴿ وما خلقْت الْجِن والإِنس إِلا لِيعبدون﴾ ([٤٦]).

فمن آمن بذلك وعمل به فهو من الحافظين لحدود الله تعالى، الذين أثنى الله عليهم سبحانه بقوله : ﴿ والْحافِظُونَ لِحدودِ اللّهِ وبشرِ الْمؤمِنِين ﴾ ([٤٧])، وقوله سبحانه : ﴿هذَا ما توعدونَ لِكُل أوابٍ حفِيظٍ﴾ ([٤٨]).

ومن الأدلة على حفظ الجوارح ما جاء في حديث ابن مسعود المرفوع: (الاستحياء من الله حق الحياء: أن يحفظ الرأس وما وعى، ويحفظ البطن وما حوى) ([٤٩]).

وحفظ الرأس وما وعى: يدخل فيه حفظ اللسان من الكذب والغيبة، والنميمة، وشهادة الزور، والقول الحرام، وحفظ السمع عن الأصوات المحرمة، وحفظ البصر عن النظر إلى ما حرم الله تعالى النظر إليه، ونحو ذلك.

وحفظ البطن وما حوى: يدخل فيه حفظ القلب عن الاعتقاد الباطل، والإصرار على المحرم، وحفظ البطن من إدخال ما حرم الله من المأكولات والمشروبات الممنوعة شرعاً([٥٠]).

قال تعالى: ﴿ ولاَ تقْف ما لَيس لَك بِهِ عِلْم إِن السمع والْبصر والْفُؤاد كُل أولئِك كَانَ عنه مسؤولاً﴾ ([٥١])؛ أي ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبت في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك، فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسؤول عما قاله وفعله، وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته أن يعد للسؤال جواباً، وللجواب صواباً، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله تعالى، وإخلاص الدين له، وكفها عما يكرهه الله جل وعلا([٥٢]).

((وكما هو معروف الجزاء من جنس العمل فمن حفظ الله حفظه الله، وحفظ الله لا يحصل إلا بفعل الواجبات وترك المحرمات، فمن فعل جميع ما أوجب الله عليه، وترك جميع ما حرم الله عليه حفظه الله بما يحفظ به عباده الصالحين، ومن المعروف أن هذه الحياة في غالب الأزمان تموج بالشرور والفتن، والحروب الطاحنة، ولكن من حفظ الله حفظه الله))([٥٣]).

ومما يلزم التنبيه عليه أن ((الله عزوجل ليس بحاجة إلى أحد حتى يحفظه، ولكن المراد حفظ دينه وشرعه، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الذِين آمنوا إِن تنصروا الله ينصركُم ﴾ ([٥٤])، وليس المعنى تنصرون ذات الله؛ لأن الله ﷻ غني عن كل أحد، ولهذا قال في آية أخرى: ﴿ ذَلِك ولَو يشاء اللَّه لَانتصر مِنهم ﴾ ([٥٥])، ولا يعجزه ﴿ وما كَانَ الله لِيعجزه مِن شيءٍ فِي

السـ ـ ـ ـ ـموات ولا في الأرض ﴾ ([٥٦]))) ([٥٧]).

وهذا الفهم الخاطئ قد يفهمه الجهلة أو يثيره الأعداء، فإن اليهود عندما سمعوا قول الله تعالى: ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ ([٥٨])، قالوا : يا محمد : افتقر ربك فسأل عباده القرض، ما بنا إلى الله من حاجة، وإنه إلينا لفقير، وإ نا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا – كما نقل ذلك عنهم([٥٩]) – فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قـالوا ﴾ ([٦٠]).

المبحث الثالث

في قوله ﷺ (يحفظك)

إذا حفظ العبد توحيده، وراعى حقوق ربه، فعندئذ يحفظه الله؛ في دينه، وفي بدنه وماله وأهله.

وأعظم هذه الأمور حفظ الله تعالى دين العبد، بأن يسلّمـه مـن الزيـغ والضـلال، والانحراف، لأن الإنسان كلما حرص على حفظ توحيده، وسلامة عقيدتـه مـن البـدع والخرافات والضلالات، حفظ الله عليه عقيدته وتوحيده، وكلما الـتزم الهدا ية زاده الله هدى، قال تعالى: ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ ([٦١])، وكلما ضـل الإنسان، والعياذ بالله، فإنه يزداد ضلالاً، ولهذا قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ ([٦٢])، أي: ختم على قلو م، وسد أبـواب الخير التي تصل إليه بسبب اتباعهم أهواءهم، التي لا يهوون فيها إلا الباطل([٦٣]).

ولهذا جاء في الحديث: (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء؛ فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلـو قلبـ ـ ـه، وهـو الـران الـ ـ ـ ـذي ذكـ ـ ـ ـر الله: ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبـون ﴾) ([٦٤]).

يحفظ الله ﷻ عبده الحافظ لدينه في حياته، وعند موته، فيتوفاه على الإيمان، إذ الجـزاء من جنس العمل، ومنه قوله تعالى: ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾ ([٦٥])، وقوله تعالى: ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ ([٦٦])، وقوله: ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ ([٦٧])، وقوله ﷺ : (إذا قام أحدكم عن فراشه ثم رجع إليه فلينفضه بصنفة إزاره ثلاث مرات؛ فإنه لا يدري ما خلفه عليه بعده، وإذا اضطجع فليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعـه، فـإن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين) ([٦٨]).

فمن حفظ الله في حياته، بإخلاص العبادة له سبحانه، وحسن الاتباع لرسوله ﷺ حفظه

الله بالإسلام ونصره وأيده؛ وقد علّم رسول الله ﷺ عمر بن الخطـاب ﷺ أن يـقول: (اللهم احفظني بالإسلام قائماً، واحفظني بالإسلام قاعداً، واحفظني بالإسلام راقـداً، ولا تشمت بي عدواً ولا حاسداً، اللهم إني أسألك من كل خير خزائنه بيدك، وأعوذ بك مـن كل شر خزائنه بيدك) ([٦٩]).

وقال ﷺ: (من أراد أن يسافر فليـقل لمن يخلف: أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه)([٧٠]).

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول للرجل إذا أراد سفراً: ادنُ مني أودعـك كمـا كان رسول الله ﷺ يودعنا، فيقول: (أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك) ([٧١]).

وجاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن الله إذا استودع شيئاً حفظه) ([٧٢]) .

فالله ﷻ يحفظ العبد الحافظ لدينه، المخلص في عبادته، ويحول بينه وبين ما يفسد عليـه دينه من مفسدات الشبهات والشهوات، من البدع والخرافات، وأنواع المغريات، فيحفظه الله منها بأنواع الحفظ، قد يخفى بعضها عليه؛ إذ يكون في ظاهرها بـلاء، وفي حقيقتهـا صرف السوء عنه، كما قال تعالى في قصة يوسف ﷺ : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ ([٧٣]).

يقول السـعدي (ت ١٣٧٦هـ) في حديثـه عـن قصـة يوسـف ﷺ : ((فصبر عن معصية الله مع وجود الداعي القوي فيه، لأنه قد هم فيها هماً تركه لله، وقـدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى برهان ربه - وهو ما معـه مـن العلـم والإيمان، الموجب لترك كل ما حرم الله - ما أوجب له البعد والانكفاف عن هذه المعصية الكبيرة، (قال معاذ الله) أي أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح؛ لأنه مـا يسخـط الله، ويبعد عنه ...، والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعـاة سـيده، الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم، الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما من الله عليـه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامـع لذلك كله: أن الله صرف عنه السوء والفحشاء؛ لأنه من عباده المخلصين له في عبـادا م، الذين أخلصهم الله، واختارهم واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم المكاره، ما كانوا به من خيار خلقه)) ([٧٤]).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ([٧٥]).

روي عن ابن عباس أنه قال: ((يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبـين الكـافر وبـين الإيمان)) ([٧٦]).

فمن حافظ على سلامة توحيده من الشبهات والانحرافات، وقام بحقوق الله عليه؛ فـإن

الله يحفظه بحفظ جميع مصالحه في الدنيا والآخرة، فمن أراد أن يتولى الله حفظه في أموره كلها فليراع حقوق الله عليه، وأعظمها حق توحيده، وإفراده بالعبادة، والعمل بشريعتـه ، اتباعاً لرسوله ﷺ ، وقد أخبر الله تعالى بأنه ولي المؤمنين وكافيهم وحسبهم، قال تعـالى: ﴿ اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ ﴾ ([٧٧])، وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ ([٧٨])، وقال سـبحانه: ﴿ وَمَـن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ([٧٩])، وقال: ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ ([٨٠]).

فالحافظ لدينه يحفظه الله في دينه ودنياه، ويحييه حياة طيبة في الدنيا والآخرة، قـال الله تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَـهُ مِـنْ أَمْـرِ اللّـهِ﴾ ([٨١]) روى الطـبري (ت ٣١٠هـ) عن ابن عباس قوله بأن المعقبات ((هم ملائكة يحفظونه بأمـر الله، فإذا جاء القدر خلوا عنه)) ([٨٢]).

وروى الطبري أيضاً، عن مجاهد (ت ١٠٤هـ) قوله: ((ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما من شيء يأتيه يريده إلا قال: وراءك، إلا شيئاً يأذن الله فيه فيصيبه)) ([٨٣]) .

وقال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: لم يكن النبي ﷺ يدع هؤلاء الـدعوات حين يمسي وحين يصبح: (اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللـهم إني أسـألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعـاتي، اللهـم احفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شـمالي ، ومن فوقـي ، وأعـوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي) ([٨٤]).

ويقول الله ﷻ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَـاةً طَيِّبَـةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ([٨٥])، فهذه الآية ((وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، من ذكر أو أنثى، من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، أن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله، بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه الله بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمـل وجوه الراحة من أي جهة كانت)) ([٨٦])، وذلك بأن يوفق الله عبده إلى مـا يرضـيه، ويرزقه العافية والرزق الحلال([٨٧]).

فلو أن الأمة رعاة ورعية حفظوا شرع الله تعالى، واحتكموا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وحكموهما في جميع مجالات الحياة، لسلمت الأمة من كثـير مـن الأخطـار والفـتن والابتلاءات كالجوع والخوف والغزو ونحو ذلك؛ إذ إن ما أصا ا من تشتت وفرقـة هـو بسبب او ا في حفظ حدود الله تعالى والقيام بشرعه.

وإن انتصار الأمة مرهون بنصرها دين الله تعالى، بالعمل به والدعوة إليه، والدفاع عنه،

يقول تعالى: ﴿ ولَيَنصرن الله من ينصره إن الله لَقوي عزيز ﴾ ([٨٨]) ففي هذه الآيـة الكريمة يبين الله تعالى ((أنه أقسم لينصرن من ينصره، ومعلوم أن نصر الله إنما هو باتباع ما شرعه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ونصرة رسله واتباعهم، ونصرة دينـه، وجهـاد أعدائه، وقهرهم، حتى تكون كلمته هي العليا، وكلمة أعدائه هي السفلى، ثم إن الله جل وعلا بين صفات الذين وعدهم بنصره؛ ليميزهم عن غيرهم، فقال مبيناً من أنفسـهم أنه ينصره ؛ لأنه ينصر الله جل وعلا: ﴿ الذِين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصـلاةَ وآتـوا الزكَاةَ وأمروا بالمعروفِ ونهوا عن الْمنكر ﴾ ([٨٩]) الآيـة، وفي قولـه: ﴿ الـذِين إن مكنـاهم في الأرض ﴾ دليل على أنه لا وعد من الله بالنصر إلا مع إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف،والنهي عن المنكر، فالذين يمكن الله لهم في الأرض، ويجعل الكلمة فيها والسلطان لهم، ومع ذلك لا يقيمون الصـلاة، ولا يؤتـون الزكـاة، ولا يـأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، فليس لهم وعد من الله بالنصر؛ لأنهم ليسوا من حزبه، ولا من أوليائه، الذين وعدهم بالنصر، بل هم حزب الشيطان وأولياؤه ، فلو طلبوا النصر من الله بناء على أنه وعدهم إياه فمثلهم كمثل الأجير الذي يمتنع من عمل ما أجر عليـه، ثم يطلب الأجرة، ومن هذا شأنه فلا عقل له)) ([٩٠]).

وخلاف ذلك، من كفر بأنعم الله تعالى وضيع حدوده، فقد عرض نفسه للهلاك، يقول تعالى: ﴿ وضرب اللّه مثَلاً قَريةً كَانت آمِنةً مطْمئِنةً يأْتِيها رِزقُها رغَدا مـن كُـلِّ مكَـانٍ فَكَفَرت بِأَنعمِ اللّهِ فَأَذَاقَها اللّه لِباس الْجوعِ والْخوفِ بِما كَانواْ يصنعونَ (١١٢) ولَقَـد جـاءهم رسولٌ منـهم فَكَذَّبوه فَأَخـذَهم الْعذَاب وهم ظَـالِمونَ ﴾ ([٩١]). قـال الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) بعد تفسيره هذه الآية: ((وعلى كل حال، فيجب على كـل عاقل أن يعتبر بهذا المثل، وألا يقابل نعم الله بالكفر والطغيان؛ لئلا يحل به ما حـل بهـذه القرية المذكـورة، ولكن الأمـثال لا يعقـلهـا عن الله إلا من أعطـاه الله علماً؛ لقوله ﷻ : ﴿وتلْك الأَمثَـالُ نضـرِبها لِلنـاس ومـا يعقـِلُها إلا الْعالِمون﴾ ([٩٢]))) ([٩٣]).

((ومن حفظ الله في صباه وقوته حفظه الله في حال كبره، وضعف قوته، ومتعه بسمعـه وبصره وحوله وقوته وعقله)) ([٩٤]).

ذكر ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) أن أبا الطيب طاهر بن عبد الله الطبري الشـافعي (ت ٤٥٠هـ)، قد جاوز المائة سنة وهو ممتع بقوته وعقله، فوثب يوماً وثبة شديدة، فعوتب في ذلك فقال: ((هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر)) ([٩٥]).

وعكس هذا أن بعض السلف رأى شيخاً يسأل الناس، فقال بأن هذا الشيخ لم يحفـظ الله في صغره، فلم يحفظه الله في كبره([٩٦])

وقد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته، في ذريته، بدليل قوله تعالى :﴿ وأما الْجِدار فَكَانَ لِغلامين يتيمين فِي الْمدِينةِ وكَانَ تحته كَنْز لهما وكَانَ أبوهما صالِحا فَأَراد ربك أنْ يبلُغا أشدهما ويستخرجا كَنْزهما رحمةً من ربك﴾ ([٩٧]) .

قال ابن كثير: ((وقوله: (وكَانَ أبوهما صالِحا) فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا، والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم))([٩٨]).

وروي عن ابن عباس أنه قال: ((حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاحاً)) ([٩٩]).

وقال السعدي في تفسير الآية السابقة: ((أي: حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما؛ لكونهما صغيرين عدما أباهما، وحفظهما الله أيضاً بصلاح والدهما)) ([١٠٠]).

وذكر ابن رجب أن سعيد بن المسيب قال لابنه : ((لأزيدن في صلاتي من أجلك ؛ رجاء أن أحفظ فيك))([١٠١]) ثم تلا هذه الآية ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾.

ونقل عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : ((ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه)) ([١٠٢]).

وقال أبو نعيم (ت٤٣٠هـ) بأن ابن المنكدر (ت١٣٠هـ) قال : ((إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده، وولد ولده، والدويرات التي حوله، فما يزالون في حفظ من الله وستر)) ([١٠٣]).

وجاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: (كانت امرأة في بيت فخرجت في سرية من المسلمين، وتركت ثنتي عشرة ء أ، وصيصيتها([١٠٤]) كانت تنسج ا، قال: ففقدت ء أ لها وصيصيتها، فقالت: يا رب ، إنك قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه ، وإني قد فقدت ء أ من غنمي وصيصيتي ، وإني أنشدك ء ي وصيصيتي) قال: وجعل رسول الله ﷺ يذكر شدة مناشد ا ر ا تبارك وتعالى ، ثم قال رسول الله ﷺ: (فأصبحت ء ها ومثلها، وصيصيتها ومثلها)([١٠٥]) .

ومن حفظ الله تعالى لعبده الحافظ لحدود الله أن يجعل الحيوانات المؤذية، حافظة له من الأذى، كما حدث لسفينة مولى النبي ﷺ، حيث كسر به المركب، وخرج إلى جزيرة، فرأى أسداً، فجعل يمشي معه حتى دله على الطريق، فلما أوقفه عليها جعل يهمهم كأنه يودعه، ثم رجع عنه([١٠٦]).

ومن ضيع حدود الله واتبع الشبهات أو غرق في الشهوات، ولم يحفظ الله، لم يحفظه الله، وكان عرضة لعقاب الله وسخطه، ودخل عليه الضرر والأذى، وربما أصابه ذلك ممن كان يرجو نفعه من أهله وماله، كما نقل عن الفضيل بن عياض (ت ١٨٧ هـ) أنه قال: ((إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق خادمي ودابتي)) ([١٠٧]).

المبحث الرابع

في قوله ﷺ : (احفظ الله تجده تجاهك)

وفي الرواية الأخرى: (احفظ الله تجده أمامك)

من حفظ الله بحفظ توحيده وشريعته، وقام بأوامر الله تعالى، واجتنب نواهيه وجـد الله تجاهه وأمامه، ومعناهما واحد، أي وجد الله أمامه يدله على كل خير، ويذود عنه كل شر، وبخاصة إذا حفظ الله بالاستعانة به والتوكل عليه، فإن الإنسان إذا استعان بالله، وتوكـل على الله كان الله حسبه وكافيه، ومن كان الله حسبه؛ فإنه لا يحتاج إلى أحد بعد الله، قـال الله تعـالى : ﴿ يا أيها النبي حسبك اللّه ومن اتبعك مِـن المـؤمنين﴾ ([١٠٨])، ((أي حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين هو الله، فهو كافيكم كلكم، وليس المـراد أن الله والمؤمنين حسبك كما يظنه بعض المغالطين؛ إذ هو وحده كاف نبيه، وهو حسبه، ليس معه من يكون هو وإياه حسباً للرسول)) ([١٠٩]).

وقال تعالى: ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك اللّه ﴾ ([١١٠])؛ فإذا كـان الله حسب الإنسان، أي كافيه؛ فلن ينالوه بسوء، ولا يزال عليه من الله حافظ، ولهذا قال ﷺ : (احفظ الله تجده تجاهك).

قال ابن حجر الهيتمي: ((أي تجده معك بالحفظ، والإحاطة والتأييد والإعانة، حيثمـا كنت، فتأنس به، وتستغني به عن خلقه ...، على حد قوله تعالى: ﴿ أن اللّه مع المتقين﴾ ([١١١])، ﴿ إن اللّه مع الصابرين﴾ ([١١٢])...، المعنى تجده حيثما توجهـت وتيممـت وقصدت من أمر الدين والدنيا)) ([١١٣]).

ومعية الله لخلقه نوعان:

الأولـى: المعية الخاصة بالمؤمنين، الحافظين حدود الله، وهي تقتضي النصر والتأييـد، والحفظ والإعانة، وتوجب لمن آمن ا كمال الثبـات والقـوة. ودليـل هـذه المعيـة الخاصـــــة قولـــــه تعالى : ﴿إن اللّه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ ([١١٤])، وقولـــــه تعالـى: ﴿إنني معكما أسـمع وأرى ﴾ ([١١٥])، وقولـه تعالى عن موسى أنه قال: ﴿إن معي ربي سيهدين﴾ ([١١٦])، وقول النبي ﷺ لأبي بكر وهما

في الغـــار : ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ ﴿لا تحزنْ إن اللّهَ معنا﴾ ([١١٧]) ، وقوله تعالى: ﴿ وأن اللّه مع الْمؤمِنين ﴾ ([١١٨]) .

فمن حفظ الله حفظه الله وأيده ونصره.

الثانية: المعية العامة لجميع الخلق، وهي تقتضي الإحاطة بجميع الخلق من مؤمن وكافر، وبر وفاجر، في العلم، والقدرة، والتدبير، والسلطان،وغير ذلك من معاني الربوبية.

وهي توجب لمن آمن بها كمال المراقبة لله ﷻ.

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى: ﴿ وهو معكُم أينما كُنتم ﴾ ([١١٩]) ، وقوله تعالى : ﴿ما يكُونُ مِن نجوى ثَلاثَةٍ إلا هو رابِعهم ولا خمسةٍ إلا هو سادِسهم ولا أدنى مِن ذَلِـك ولاَ أكْثَر إلا هو معهم أين ما كانوا ﴾ ([١٢٠]) ، وقوله : ﴿ ولا يستخفُونَ مِن اللّهِ وهـو معهم إذْ يبيتونَ ما لاَ يرضى مِن الْقَولِ ﴾ ([١٢١]) .

والكتاب والسنة يدلان على قرب الله تعلى من عبده الحافظ لدينه، يقول الله ﷻ: ﴿ وإذَا ســألك عِبـــادِي عنـي فَإنـــــــــي قَرِيـــب أُجِيـــــــــب دعـــــــوةَ الداعِ إذَا دعان ﴾ ([١٢٢]) .

وقول الله تعالى في الحديث القدسي: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبـه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجلـه التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه) ([١٢٣]) .

والمراد أن الله ﷻ يسدد هذا الولي في سمعه وبصره وعمله، بحيث يكون إدراكه بسمعه وبصره، وعمله بيده، كله لله تعالى، إخلاصاً، وبالله تعالى استعانة، وفي الله تعـالى شـرعاً واتباعاً، فيتم له بذلك كمال الإخلاص والاستعانة والمتابعة، وهذا غاية التوفيق ([١٢٤]) .

وقوله ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى أنه قال: (من تقـرب مـني شـبراً تقربـت منـه ذراعــــاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولـة) ([١٢٥]) .

فالله ﷻ يقرب من عبده كيف يشاء مع علوه جل وعلا، ويأتي عبده كيف يشاء بدون تكييف ولا تمثيل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ): ((وأما دنوه نفسه وتقربه من بعض عباده، فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه، ومجيئه يوم القيامة ونزوله واستواءه على العرش، وهذا مذهب أئمة السلف، وأئمة الإسلام المشهورين، وأهل الحديث، والنقل عنهم بذلك متواتر))([١٢٦]).

وروى ابن رجب عن قتادة (ت ١١٨ هـ) أنه قال: ((من يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل)).

وذكر أن بعض السلف كتب إلى أخ له يقول: ((أما بعد، فإن كان الله معك فممن تخاف ؟! وإن كان عليك فمن ترجو؟! والسلام))([١٢٧]).

ولا شك أن الذي يحفظ عقيدته من الانحراف، وعمله من الشرك، ويتقي الله يكون الله معه، بنصره وتأييده، يهديه ويحفظه، ويؤمنه، ومن اتبع الشبهات، أو ضيع حدود الله فقد عرض نفسه للهلاك.

فمن أراد أن يتولى الله حفظه ورعايته في أموره كلها، فليراعِ حقوق الله عليه، ومن أراد ألا يصيبه شيء مما يكره، فلا يأتِ شيئاً مما يكرهه الله منه، وعلى قدر اهتمام العبد بحقوق الله ومراعاة حدوده وحفظه لها، يكون حفظ الله له ونصره وتأييده، ومن كان غاية همه توحيد الله ومعرفته وطلب قربه ورضاه؛ فإن الله يكون له حسب ذلك، بل هو سبحانه أكرم الأكرمين، فهو يجازي بالحسنة عشراً ويزيد، ومن تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة.

المبحث الخامس

في قوله ﷺ : (وإذا سألت فاسأل الله)

قوله: (إذا سألت فاسأل الله) أي لا تعتمد على أحد من المخلوقين، وإذا احتجت فاسأل الله وحده، يأتيك رزقك من حيث لا تحتسب، أما إذا سأل الإنسان المحتاج الناس فربما أعطوه أو منعوه، ولهذا جاء في الحديث: (لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب ثم يبيعه لكان خيراً له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه)([١٢٨]).

فعلى المسلم أن يتجه بسؤاله لله وحده، ويدعوه بإلحاح، مثل أن يقول: (اللهم ارزقني)، و(اللهم أغنني بفضلك عمن سواك) وما أشبه ذلك من الكلمات([١٢٩]). وفي قوله: (إذا

سألت فاسأل الله) أمر بإفراد الله ﷻ بالسؤال، و ي عن سؤال غيره.

وقال الله ﷻ: ﴿ واسألوا اللّه مِن فَضلِهِ﴾ ([١٣٠])، وقال جل وعلا: ﴿وقَـالَ ربكُـم ادعوني أستجِب لكُم إِن الذِين يستكْبِرونَ عن عِبادتِي سيدخلُونَ جهنـم داخِـرِين ﴾ ([١٣١]).

((وهذا من لطفه بعباده، ونعمته العظيمة، حيث دعاهم إلى ما فيـه صـلاح دينهـم ودنياهم، وأمرهم بدعائه، دعاء العبادة، ودعاء المسألة، ووعدهم أن يستجيب لهم، وتوعد من استكبر عنها)) ([١٣٢]).

فيجب على المسـلم أن يتوجه بسؤاله لله وحـده، لاسيما في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، فمن طلبها من غير الله فقد أشرك مع الله غيره، كمـن يدعـو أصحاب القبور ونحوهم، قال تعالى: ﴿ ومن أضل مِمن يدعو مِن دون اللهِ من لا يستجِيب له إِلَى يومِ الْقِيامة ﴾ ([١٣٣]).

أما سؤال الناس في الأمور التي يقدرون عليها، فقد وردت نصوص كثيرة تذم طلبهـا منهم، وتثني على المتعففـين الذين لا يسـألون الناس، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَراء الذِين أُحصِرواْ فِي سبِيلِ اللّهِ لا يستطِيعونَ ضربا فِي الأَرضِ يحسبهم الْجاهِلُ أَغْنِياء مِـن التعففِ تعرِفُهم بِسِيماهم لا يسأَلُونَ الناس إِلْحافًا﴾ ([١٣٤]).

وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه عل ألا يسألوا الناس شيئاً منهم : أبو بكر الصديق ، وأبو ذر ، وثوبان ، وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه (([١٣٥]).

وقد أجاد شيخ الإسلام ابن تيمية في تفصيل الحكـم في هـذه المسـألة فقال: ((وتفصيل القول: أن مطلوب العبد إن كان في الأمور التي لا يقدر عليهـا إلا الله تعالى، مثل أن يطلب شفاء مريضه من الآدميين والبهائم، أو وفاء دينه من غير جهة معينة، أو عافيته، أو عافية أهله، وما به من بلاء الدنيا والآخرة، وانتصاره على عدوه، وهدايـة قلبه، أو غفران ذنبه، أو دخول الجنة، أو نجاته من النار، أو أن يتعلم القرآن والعلم، أو أن يصلح قلبه، ويحسن خلقه، ويزكي نفسه، وأمثال ذلك، فهذه الأمور كلـها لا يجـوز أن تطلب إلا من الله تعالى، ولا يجوز أن يقول لا لملك ولا نـبي، ولا شـيخ، سـواء كان حياً أو ميتاً: اغفر ذنبي ، ولا انصرني على عـدوي ، ولااشـف

مريضي ، ولا عافني وعافي أهلي ودوابي، وما أشـبه ذلك ، ومن سـ ـ ـأل ذلـك مخلوقاً – كائناً من كان - فهو مشرك بربه، من جنس المشركين، الذين يعبدون الملائكـة والأنبياء والتماثيل، التي يصورو ا على صورهم، ومن جنس دعاء النصارى للمسيح وأمه، وقال تعالى: ﴿ وإذْ قالَ اللّه يا عِيسى ابن مريم أأنت قُلت ِللناس اتخِذُوني وأمي ِإلَٰ ـهين مِن دون اللّهِ ﴾ ([١٣٦])، وقال تعالى: ﴿ اتخذُواْ أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون اللّـهِ والْمسِيح ابن مريم وما أُمِرواْ ِإلا ِليعبدواْ ِإلَٰـها واحِدا لا ِإلَٰـه ِإلا هـو سـبحانه عمـا يشركُونَ﴾ ([١٣٧]).

وأما ما يقدر عليه العبد، ويجوز أن يطلب منه في بعض الأحوال دون بعض؛ فإن مسألة المخلوق قد تكون جائزة، وقد تكون منهياً عنها، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرغْت فَانصـب (٧) وإِلَى ربك فَارغَب (٨)﴾ ([١٣٨])، وأوصى النبي ﷺ ابن عباس: (إذا سألت فاسـأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله)، وأوصى النبي ﷺ طائفة من أصحابه ألا يسألوا النـاس شـيئاً، فكان أحدهم يسقط السوط من يده، فلا يقول لأحد: ناولني إياه...، ومن الأمر المشروع في الدعاء دعاء غائب لغائب؛ ولهذا أمرنا النبي ﷺ بالصلاة عليه، وطـلب الوسـيلة له ، وأخبرنا بماـنا بذلك من الأجر إذا دعونا بذلك ([١٣٩])... ويشرع للمسلم أن يطلب الدعاء ممن هو فوقه ، وممن هو دونه ... لكن النبي ﷺ لما أمرنا بـالصلاة عليـه ، وطلب الوسيلة له ، ذكر أن من صلى عليه مرة صلى الله ا عليه عشراً ، وان من سأل الله له الوسيلة حلت له شفاعته يوم القيامة ، فكان طلبه منا لمنفعتنا في ذلك ، وفرق بين مـن طلب من غيره شيئاً لمنفعة المطلوب منه، ومن يسأل غيره لحاجته إليه فقط)) ([١٤٠]).

وكيف يطلب من غير الله كشف الضر أو جلب النفع، وذلك كله بيده، قال تعالى: ﴿ وإِن يمسسك اللّه ِبضر فَلا كَاشِف لَه ِإلا هو وإِن يردك ِبخيرٍ فَـلا رآد ِلفَضلِـهِ ﴾ ([١٤١])، وقال سبحانه: ﴿ ما يفْتح الله ِللناس ِمن رحمةٍ فَلا ممسِك لَها وما يمسِك فَـلا مرسِلَ لَه ِمن بعدِهِ ﴾ ([١٤٢]).

والله ﷻ يحب أن يسأل ويرغب إليه في الحوائج، ويلح في سؤاله ودعائه، ويغضب على من لا يسأله، قال ﷺ : (من لم يدع الله سبحانه يغضب عليه) ([١٤٣])، ويستدعي مـن

عباده سؤاله، وهو قادر على إعطاء خلقه كلهم سؤلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء، والمخلوق بخلاف ذلك.

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ([١٤٤])، ويقول الرسول ﷺ: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له) ([١٤٥]).

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر) ([١٤٦]).

يقول ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) في شرح هذه المسألة: ((وهذا كله تحقيق للتوحيد والقدر، وأنه لا رب غيره، ولا خالق سواه، ولا يملك المخلوق لنفسه، ولا لغيره ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بل الأمر كله لله، ليس لأحد سواه منه شيء، كما قال تعالى لأكرم خلقه عليه، وأحسنهم إليه: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ([١٤٧])

وقال جواباً لمن قال: ﴿ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ ([١٤٨]) ([١٤٩])، فالملك كله له، والأمر كله له، والحمد كله له، والشفاعة كلها له، والخير كله في يديه، وهذا تحقيق تفرده بالربوبية والألوهية، فلا إله غيره، ولا رب سواه، ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ([١٥٠]) ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ([١٥١])، ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ([١٥٢]) فاستعذ به منه، وفر منه إليه، واجعل لجاك منه إليه، فالأمر كله له، لا يملك أحد معه منه شيئاً، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا يضر سم ولا سحر ولا شيطان ولا حيوان ولا غيره إلا بإذنه

ومشيئته، يصيب بذلك من يشاء، ويصرفه عمن يشاء))([١٥٣]) .

وا ـ ـذلك قـ ـال تعالى ؛ مخـ ـبراً عن نوح عليه السلام أنه قال لقـ ـومـ ـ ـ ـه : ﴿ إِن كَانَ كَبر عَلَيْكُم مقَامِي وتذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعلَى اللّهِ توكلْـ ـت فَـ ـأَجمِعواْ أَمركُـ ـم وشركَاءكُم ثُم لاَ يكُن أَمركُم علَيكُم غُمةً ثُم اقْضواْ إِلَي ولاَ تنظِرون ﴾ ([١٥٤]) .

فنوح عليه السلام قال لقومه: إن كان عظم عليكم مقامي فيكم بين أظهـ ـركم، وتـ ـذكيري إياكم بحجج الله وبراهينه، ﴿ فَعلَى اللّهِ توكلْت ﴾؛ فإني لا أبالي، ولا أكف عنكم، سواء عظم عليكم، أولا، فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم، الذين تدعون من دون الله، من صنم ووثن، ﴿ثُم لاَ يكُن أَمركُم علَيكُم غُمةً﴾، أي ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فافضوا إليّ ولا تتأخروا ساعة واحدة، مهما قـ ـدرتم فافعلوا ؛ فإني لا أباليكـ ـ ـم ، ولا أخاف منكم؛ لأنكم لستم على شيء ([١٥٥]).

وقال تعالى، مخبراً عن هود عليه السلام:﴿ قَالَ إِني أُشهِد اللّه واشـ ـهدواْ أَنـ ـي بـ ـرِيءٌ مـ ـما تشرِكُونَ (٥٤) مِن دونِهِ فَكِيدونِي جمِيعا ثُم لاَ تنظِرونِ (٥٥) إِني توكلْت علَى اللّهِ ربي وربكُم ما مِن دآبةٍ إِلا هو آخِذٌ بِناصِيتِها إِن ربي علَى صِراطٍ مستقِيمٍ ﴾ ([١٥٦]).

يبين هود عليه السلام أنه واثق غاية الوثوق أنه لا يصيبه منهم، ولا من آلهتـ ـهم أذى؛ ولهـ ـذا أشهد الله وأشهدهم أنه عليه السلام بريء من جميع الأنداد والأصنام، ثم قال لهم: ﴿ فَكِيدونِـ ـي جمِيعا ﴾ أي اطلبوا لي الضرر كلكم، أنتم وآلهتكم، إن كانت حقاً، بكل طريق تتمكنـ ـون ا مني ولا تمهلون طرفة عين، ﴿إِني توكلْت علَى اللّهِ﴾ واعتمدت عليه في أمري كله، فهو خالق الجميع، ومدبرنا وإياكم، وهو الذي ربانا، فلا تتحرك دابة ولا تسكن إلا بإذنه، فلوا اجتمعتم جميعاً على الإيقاع بي، والله لم يسلطكم علي، لم تقدروا على ذلك؛ فإن سـ ـلطكم فلحكمة أرادها، ﴿إِن ربي علَى صِـ ـراطٍ مستقِيـ ـمٍ﴾ أي علـ ـى عـ ـ ـ ـ ـدل وقسـ ـط وحكمـ ـ ـ ـ ـة، لا تخرج أفعـ ـ ـ ـ ـاله عن الصراط المستقيم، التي يحمد، ويثنى عليه ا ([١٥٧]).

أما سؤال الناس فيما يقدرون عليه فتركه أولى، وذلك أن في طلب الناس وسؤالهم ذلة وخضوعاً، والمسلم مطالب بإظهار كمال الذل والخضوع لله وحده لا شريك له.

يقول ابن رجب: ((واعلم أن سؤال الله تعالى، دون خلقه هو المتعين، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسـ ـ ـؤول على دفع هذا الضرر، ونيل المطلوب، وجلب المنافع، ودرء المضـ ـار، ولا يصلح الـ ـذل والافتقار إلا لله وحده، لأنه حقيقة العبادة)) ([١٥٨]).

وقال في كتاب آخر: ((واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين عقلاً وشرعاً، وذلك من وجوه متعددة، منها: أن السؤال فيه بذل ماء الوجه وذلة للسائـ ـل، وذا ـك لا

يصلح إلا لله وحده، فلا يصلح الذل إلا له بالعبادة والمسألة، وذلك من علامات المحبة الصادقة.

ومنها أن في سؤال الله عبودية عظيمة؛ لأ ا إظهار للافتقار إليه، واعتراف بقدرته على قضاء الحوائج، وفي سؤال المخلوق ظلم، لأن المخلوق عاجز عن جلب النفع لنفسه، ودفع الضر عنها فكيف يقدر على ذلك لغيره ؟ وسؤاله إقامة له مقام من يقدر، وليس هو بقادر.

ومنها أن الله يحب أن يسأل، ويغضب على من لا يسأله، فإنه يريد من عباده أن يرغبوا إليه ويسألوه، ويدعوه ويفتقروا إليه، ويحب الملحين في الدعاء، والمخلوق غالباً يكـره أن يسأل لفقره وعجزه، ...

ومنها: أن الله تعالى يستدعي من عباده سؤاله، وينادي كل ليلة: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فاستجيب له ...، فأي وقت دعاه العبد وجده سميعاً قريباً مجيباً، ليـس بينـه وبينه حجاب ولا بواب، وأما المخلوق؛ فإنه يمتنع بالحجاب والأبواب، ويعسر الوصول إليه في أغلب الأوقات)) ([١٥٩]).

ولهذا كان عقوبة من سأل الناس تكثراً أن يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحـم، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم)([١٦٠]) .

وقال ﷺ : (يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلـت لـه المسألة، حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلّت له المسألة حـتى يصيب قواماً من عيش، أو قال سداداً من عيش، ورجل أصابته فاقة، حتى يقوم ثلاثة مـن ذوي الحجا من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة، فحلت له المسألة، حتى يصيب قوامـاً مـن عيش، أو قال سداداً من عيش، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتاً يأكلـها صـاحبها سحتاً)([١٦١]).

في هذا الحديث يبين الرسول ﷺ أن من يحل له المسألة من الناس ثلاثة: الأول صاحب الحمالة، وهو أن يكون بين القوم تشاحن، في دم أومال، فيسعى رجـل في إصـلاح ذات بينهم، ويضمن مالاً يبذل في تسكين ذلك التشاحن، فإنه يحل له السـؤال، ويعطـى مـن الصدقة قدر ما تبرأ ذمته عن الضمان، وإن كان غنياً، والثاني: أن يكون معروفـاً بالمـال، فيهلك ماله بسبب ظاهر كالجائحة، فهذا يحل له الصدقة، حتى يصيب ما يسد خلته بـه، ويعطى من غير بينة، تشهد على هلاك ماله؛ لأن سبب ذهاب ماله أمر ظاهر، والثالـث: صاحب مال هلك ماله بسبب خفي من لص، أو خيانة، أو نحو ذلك، فهذا تحل له المسألة، ويعطى من الصدقة بعد أن يذكر جماعة من أهل الاختصاص به، والمعرفة بشأنه أنه قد هلك ماله)) ([١٦٢]).

وقد ذكر النووي (ت ٦٧٦ هـ)، اتفاق العلماء على النهي عن السؤال إذا لم تكـن ضرورة، ثم قال: ((واختلف أصحابنا في مسألة القادر على الكسب على وجهين أصحهما

أنها حرام؛ لظاهر الأحاديث والثاني حلال مع الكراهية بثلاثة شروط: أن لا يذل نفسه، ولا يلح في السؤال، ولا يؤذي المسؤول؛ فإن فقد أحد هـذه الشـروط فهـي حـرام بالاتفاق)) ([١٦٣]) .

وإذا علم المسلم أن الغني القادر الذي بيده الخير كله هو الله ﷻ، ترىى علـى الأنفـة والاستغناء عن المخلوقين، وعلم أن السبيل الوحيد إلى ذلك هو التعلق بالله تعالى والتوكل عليه، وعبادته والالتجاء إليه، مع الأخذ بأسباب الجد والعمل، وبذلك يحفظ المسلم مـاء وجهه من التذلل والسؤال، وخفض الأكف والانكسار للأشخاص مهما كانوا، فيحفـظ كرامته، وتبقى له عزته ومكانته.

المبحث السادس

في قوله ﷺ : (وإذا استعنت فاستعن بالله)

الاستعانة طلب العون من الله تعالى، بلسان المقال، كأن تقول، عند شروعك بالعمـل: اللهم أعني، أو لا حول ولا قوة إلا بالله، أو بلسان الحال، وهي أن تشعر بقلبك أنك محتاج إلى الله تعالى أن يعينك على هذا العمل، وأنه إن وكلك إلى نفسـك وكلـك إلى ضـعف وعجز، أو طلب العون بهما جميعاً، والغالب أن من استعان بلسان المقال فقد استعان بلسان الحال([١٦٤]).

فتجب الاستعانة بالله تعالى على تحمل الطاعات، وترك المنهيات، كما تجب الاستعانة به سبحانه على الصبر على المقدورات؛ فإن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في الإتيان بهذه الأمور، ولا بد له من طلب الإعانة من ربه ﷻ، ولا معين للعبد على مصالح دينه ودنياه إلا الله ﷻ، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن فرط في حق الله تعالى، لم يعنه الله، فهو المخذول.

يذكر ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) أن الدين كله يرجع إلى العبادة والاستعانة، فالعبادة تبرؤ من الشرك، والاستعانة تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله ﷻ، وهذا المعـنى في غير آية من القرآن([١٦٥])، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾([١٦٦])، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾([١٦٧])، وقوله: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْـرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾([١٦٨])، وقوله: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾([١٦٩])، ونحو ذلك من الآيات.

ولهذا أشار الإمام محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦ هـ)، أن معنى الاستعانة: ((سؤال الله الإعانة وهو التوكل والتبري من الحول والقوة)) ([١٧٠])

ويعرف أحد العلماء الاستعانة بقوله : ((والاستعانة هي الاعتماد على الله تعـالى ، في

جلـــب المنافع ، ودفع المضـــار ، مع الثقة به في تحصيل ذلك))([171])

ويؤكد هذا التعريف قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ([172])

هذه الآية العظيمة التي يتلوها المسلم في كل ركعة من ركعات صلواته، وهي آية مـن سورة الفاتحة، التي (هي أعظم السور في القرآن) ([173])

ومعنى ﴿ إِياك نعبد وإياك نستعِين ﴾ : أي نخصك وحدك يا إلهنا بالعبادة والاسـتعانة ، وذلك لأن تقديم المعمول يفيد الحصر ، وهو إثبات الحكم للمذكور وفيه عمـا عـداه ، فكأنه يقول : نعبدك ،ولا نعبد غيرك ، ونستعين بك ، ولا نستعين بغيرك ، أي نوحـدك ونطيعك خاضعين ، ونطلب منك وحدك المعونة على عبادتك وعلـى جميـع أمورنـا([174]) .

((وللقيام بعبادة الله تعالى، والاستعانة به هما الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما ، وإنما تكون العبادة عبادة إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ، مقصوداً بها وجه الله ، فبهذين الأمرين تكون عبادة ، وذكر الاسـتعانة بعد العبادة مع دخولها فيها ، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى ؛ فإنـه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي))([175])

وجاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولاتعجز)([176])، أي احرص على طاعة الله تعالى ، والرغبة فيما عنده ، واطلب الإعانـة من الله تعالى على ذلك ، ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطاعة، ولا عن طلب الإعانة([177]).

ولهذا كان النبي ﷺ يعلم أصحابه خطبة الحاجة ، وهي : (أن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ...)([178]) الحديث .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (وتستحب هذه الخطبة في افتتـاح مجـالس التعليـم ، والوعظ ،والمجادلة ، وليست خاصة بالنكاح) ([179]).

وعن معـاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده ، وقال : (يا معاذ إني والله لأحبك فلا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول : (اللهم أعني على ذكـرك وشـكرك وحسن عبادتك) ([180]).

وكان النبي ﷺ يدعو ويقول : (رب أعني ، ولا تعن علي) ([181]) الحديث .

فالمسلم مطالب بالاستعانة بالله تعالى في فعل المأمورات ، واجتناب المنهيات .

يقول ابن تيمية عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِياك نعبد وإياك نستعِين﴾ : ((وكل واحد من العبادة والاستعانة دعاء ، وإذا كان قد فرض علينا أن نناجيه وندعوه بهاتين الكلمتـين في كل صلاة، فمعلوم أن ذلك يقتضي أنه فرض علينا أن نعبده وأن نستعينه ...، كما أمر بهما في قوله: ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾، والأمر له ولأمته، وأمره بذلك في أم القرآن، وفي غيرها، لأمته؛ ليكون فعلهم ذلك طاعة لله، وامتثالاً لأمره، لا تقدماً بين يدي الله ورسـوله، وإلى

هذين الأصلين كان النبي ﷺ يقصد في عبادته وأذكـاره ومناجاتـه، مثـل قولـه في الأضحية: (اللهم هذا منك ولك وإليك) ([١٨٢])؛ فإن قوله: منـ ـك ، هـو معـنى التوكـ ـ ـل والاستعانـ ـة ، وقولـ ـه : لك، هو معنى العبادة)) ([١٨٣]) .

وقال في موضع آخر: ((فإن الإخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامـة، كمـا أمرنا أن نقول في صلاتنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فهـ ـاتان الكلمتـ ـان قد قيـل إ ـ ـما تجمعان معانـ ـي الكتب المنزلة من السماء)) ([١٨٤]) .

ويذكر ابن القيم أن آية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ((متضمنة لأجلّ الغايات وأفضل الوسائل، فأجلّ الغايات عبوديته، وأفضل الوسائل إعانته، فلا معبود يستحق العبـادة إلا هو، ولا معين على عبادته غيره، فعبادته أعلى الغايات، وإعانته أجل الوسائل ...، وقـد اشتملت هذه الكلمة على نوعي التوحيد، وهما توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وتضمنت التعبد باسم الرب، واسم الله، فهو يعبد بألوهيته، ويستعان بربوبيته، ويهدي إلى الصـراط المستقيم برحمته ...، وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله، لا يعين على عبادته سواه، ولا يهـدي سواه)) ([١٨٥]) .

كما أن العبد مطالب بالصبر والاستعانة بالله تعالى عند وقوع المصائب والابتـلاءات، ولهذا قال يعقوب عليه السلام، عند وقوع مصيبته: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ ([١٨٦]).

ولما قال أهل الإفك ما قالوا في عائشة رضي الله عنها قالت: ((والله ما أجد لي ولكـم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾، فبرأها الله مما قالوا)) ([١٨٧]).

وعندما هدد فرعون موسـى وقومـه ، ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ([١٨٨]) ، فجاء الأمـر علـى خلاف ما أراد فرعون؛ إذ أعزهم الله وأذله، وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده ([١٨٩]).

وأخبر الله تعالى عن الرسول ﷺ أنه لما كذبه قومه: ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ ([١٩٠]) ، أي والله المستعان عليكم فيمـا تقولـون وتفترون من التكذيب والإفك ([١٩١]).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدعو في قنوته بقوله: (اللهم إنا نستعينك، ونـؤمن بـك، ونتوكل عليك) ([١٩٢]) .

ولما بشر الرسول ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه بالجنة، مع بلوى تصيبه، قال رضي الله عنه: ((اللهم صبراً، الله المستعان)) ([١٩٣]).

وقد قال الرسول ﷺ لأحد الصحابة: (قل لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإ ا ك من كنوز الجنة) ([١٩٤]). يقول ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ)، ((تسمى هذه الكلمة كـ اً؛ لأ ـا كالكـ في نفاسته، وصيانته عن أعين الناس ...؛ لأن معنى (لا حول) لا تحويـل للعبـد عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة له على طاعة الله إلا بتوفيق الله ...، وحاصله أن المراد أ ا من ذخائر الجنة، أو من محصلات نفائس الجنة)) ([١٩٥]). ويقـول النـووي: ((قال العلماء: سبب ذلك أ ا كلمة اسـتسلام وتفـويض إلى الله تعـالى، واعـتراف بالإذعـان له ...)) ([١٩٦]). فهـ ـي كلمـة عظيـ ـمة تتضمن اعتراف العبد بأنه لا تحول له من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بإعانة الله وحـده. فالاسـتعانة لا تطلب من أي إنسان، إلا عند الضرورة، وفيما يقدر عليه فقط، وإذا اضطر العبد الاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه، فعليه أن يجعل ذلك وسيلة وسبباً، لا ركناً يعتمد عليـه، وإنمـا الركن الأصيل الذي يعتمد عليه في الدعاء والسؤال والاستعانة هو الله وحده لا شريك له. كما أنّ على العبد إذا احتاج إلى الاستعانة بالمخلوق، كحمل صندوق مثلاً، أن لا يشعـر نفسه أن هذه استعانة كاستعانته بالخالق، وإنما عليه أن يشعر أ ا كمعونة بعـض أعضائـه لبعض، كما لو عجز عن حمل شيء بيد واحدة، فإنه يستعين على حمله باليد الأخـرى ([١٩٧]). وعلى هذا فالاستعانة بالمخلوق، فيما يقدر عليـه، كالاستعانـ ـ ـة ببعـض الأعضاء، فلا ينافي ذلك قوله ﷺ : (فاستعن بالله). فإذا وقع العبد في مكروه وشدة فـلا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله بعد الاستعانة بـالله تـعالى، ولا يكون هذا شكوى للمخلوق؛ فإنه من الأمور العادية، التي جرى العرف باستعانة النـاس، بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف عليه السلام للذي ظن أنه ناج من الفتيين (﴿ : ([١٩٨]) اذْكُرني عِند ربك﴾ ([١٩٩]) . والمصيبة العظيمة، والخطر الجسيم فيمن يسأل أو يستعين بأصحاب القبور، أو غيرهم ممن يسمون بالأولياء والصالحين، سواء أكانوا أمواتـاً أم أحيـ ـ ـ ـاء فيسألهـ ـ ـم ويستعين م فيما لا يقدرون عليه من جلب نفع أو دفع ضر، أو رزق ولد، أو دخول الجنة، أو النجاة من النار، ونحو ذلك مما هو واقع في بعض البلاد، فإن هذا شرك بالله تعالى، إذ هو وحده القادر على كل شيء، وما دونه من نبي أو ولي لا يملـك لنفسـه جلب الخير أو دفع الشر إلا بإذنه ﷻ، ولهذا قال الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قُـل لا أَملِـك لِنفْسِي نفْعا ولا ضرا إِلا ما شاء اللّه ولَو كُنت أَعلَم الْغيب لاَستكْثَرت مِن الْخيـ ِر ومـا مسنِي السوء ﴾ ([٢٠٠]) ، فهذه الآية تبين جهل من يقصد النبي ﷺ ، ويـدعوه لحصـول نفع، أو دفع ضر، فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضر عمن لم يدفعـه الله عنـ ـه ، ولا لـ ـه من العلـ ـم إلا ما علمه الله. ويقـول ﷻ: ﴿ ومِن الناس من يعبد الله على حرفٍ فَإِنْ أَصابه خير اطْمأَن بِهِ وإِنْ أَصابته فِتنةٌ انقَلَب على وجهِهِ خسِر الدنيا والآخِرةَ ذَلِك هو الْخسرانُ الْمبِين (١١) يدعو مِن دون اللهِ ما لا يضره

وما لا ينفعه ذَلِكَ هو الضلالُ الْبعِيد (١٢) يدعو لمن ضره أقْرب مِن نفْعِـهِ لَبِئْـس الْمولَى ولَبِئْس الْعشِير ﴾ ([٢٠١])، هذه صفة كل مدعو ومعبود مـن دون الله، فإنه لا يملك لنفسه، ولا لغيره، نفعاً ولا ضراً ﴿ ذَلِكَ هو الضلالُ الْبعِيد﴾ الذي بلغ في البعد حـد النهاية، حيث أعرض عن عبادة النافع الضار، الغني المغني، وأقبل على عبادة مخلوق مثلـه، أو دونه، ليس بيده من الأمر شيء، بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب؛ ولهذا قـال ﴿ يدعو لمن ضره أقْرب مِن نفْعِهِ ﴾؛ فإن ضـرره في العقـل والبـدن، والدنـيا والآخرة معلوم، ﴿ لَبِئْس الْمولَى ولَبِئْس الْعشِير ﴾ أي لبئس هذا المعبـود والقرين، الملازم على صحبته، فإن المقصود من المولى والعشير حصول النفع، ودفع الضر، فإذا لم يحصل شيء من هذا، فإنه مذموم ملوم ([٢٠٢]). ولهذا ينبه الله تعالى على حقـارة الأصنام، وسخافة عقول عابديها بقوله تعالى:: ﴿ يا أيها الناس ضرِب مثَلٌ فَاستمِعوا لَه إِن الَّذِين تدعونَ مِن دون اللهِ لَن يخلُقُوا ذُبابا ولَو اجتمعوا لَه وإِن يسلُبهم الذباب شـيئًا لا يستنقِذُوه مِنه ضعف الطَّالِب والْمطْلُوب (٧٣) ما قَدروا الله حق قَدرِهِ إِن الله لَقَوِي عزِيز ﴾ ([٢٠٣]). يقول ابن دقيق العيد في شرح هذا الجزء من توجيه رسـول الله ﷺ لابـن عباس: ((أرشده إلا التوكل على مولاه، و أن لا يتخذ إلهاً سواه، ولا يتعلق بغيره، في جميع أموره، ما قل منها وما كثر، وقال الله تعالى: ﴿ ومن يتوكلْ علَى اللـهِ فَهـو حسبـه﴾ ([٢٠٤])، فبقدر ما يركن الشخص إلى غير الله تعالى، بطلبه، أو قلبه، أو بأمله، فقد أعرض عن ربه، بمن لا يضره ولا ينفعه، وكذلك الخوف من غير الله)) ([٢٠٥]). ومما يـدل عليه قوله ﷺ: (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فسـأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله) أن الإيمان يشمل العقائد القلبية، والأقوال، والأعمال، كمـا هـو المذهب الحق، وهو قول أهل السنة والجماعة؛ فإن (الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاهـا قول لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)([٢٠٦])، وهذه الشعب التي ترجع إلى الأعمال الباطنة والظاهرة كلها من الإيمان. ويدل هذا الحديث العظيم على أنه من نقص التوحيد أن الإنسان يسأل غير الله، ولهذا قال العلماء بكراهيـة المسألة لغير الله ﷻ، في قليل أو كثير، والله ﷻ إذا أراد إعانة أحد يسر له العـون، سـواء أكان بأسباب معلومة أو غير معلومة، فقد يعين الله العبد بسبب غير معلوم له، فيدفع عنـه من الشر ما لا طاقة لأحد به، وقد يعينه الله على يد أحد من الخلق يسخره له، ويذلّله لـه حتى يعينه، ولكن مع ذلك لا يجوز للعبد إذا أعانه الله على يد أحد أن ينسى المسبب وهو الله ﷻ ([207]) .

المبحث السابع

في قوله ﷺ: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشـيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعـوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله

عليك) يبين الرسول ﷺ في هذا الكلمات أن الأمة لو اجتمعت واتفقت كلها على نفع إنسان بشيء لم يستطيعوا نفعه إلا بشيء قد كتبه الله وقدره له، وإن وقع منهم نفع له فإنما هو من الله تعالى؛ لأنه هو الذي كتبه وقدره . فالرسول ﷺ لم يقل لو اجتمعت الأمة على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك، وإنما قال: (لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك)، فالناس ينفع بعضهم بعضاً، لكن كل هذا مما كتبه الله للإنسان، فالفضل فيه لله ﷻ أولاً، فهو الذي سخر لك من ينفعك، ويحسن إليك، ويزيل كربتك. وكذلك لو اجتمعت الأمة على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ((والإيمان بهذا يستلزم أن يكون الإنسان متعلقاً بربه، ومتكلاً عليه، لا يهتم بأحد؛ لأنه يعلم أنه لو اجتمع كل الخلق على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وحينئذ يعلق رجاءه بالله، ويعتصم به، ولا يهمه الخلق، ولو اجتمعوا عليه، ولهذا نجد الناس في سلف هذه الأمة لما اعتمدوا على الله وتوكلوا عليه لم يضرهم كيد الكائدين، ولا حسد الحاسدين: ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا إن اللّه بما يعملون محيط ﴾ ([٢٠٩]) ...)) ([٢٠٨]). فالإيمان بالقضاء والقدر، والاعتماد على الله وحده، في كل الشؤون، سكينة واطمئنان للعبد، إذ لا يبالي بما يدبره الخلق أو يهددونه به، لأنه يعلم أن الخير والشر بتقدير الله تعالى، والنفع والضر بإرادته وحكمته سبحانه، فلا يستطيع أحد من الخلق أن يحقق للعبد أذى أو ابتلاء إلا بإذن الله تعالى لحكم يريدها سبحانه، بل الله يدافع عنه وينصره ويؤيده، وكذلك لا يستطيع أحد من الخلق تحقيق منفعة للعبد لم يأذن بها الله تعالى. كما أن الإيمان بالقضاء والقدر، وبما جاء في هذا الجزء من الحديث، من أعظم أسباب الشجاعة والإقدام والجهاد، فلن يستطيع الأعداء أن يضروا أحداً بشيء مهما خططوا وتآمروا إلا بشيء قد كتبه الله وقدره لحكم أرادها. والشجاعة ليست هي قوة البدن، فقد يكون الرجل قوي البدن، ضعيف القلب، وإنما الشجاعة قوة القلب وثباته، فإن القتال مداره على قوة البدن، وصنعته للقتال، وعلى قوة القلب وخبرته به، والمحمود منهما ما كان بعلم ومعرفة، دون التهور الذي لا يفكر صاحبه، ولا يميز بين المحمود والمذموم ([٢١٠]). فهذا الحديث العظيم يوجب الإيمان بالقضاء والقدر ، وهو الركن السادس من أركان الإيمان، والإيمان به يتضمن الإيمان بمراتبه الأربع، وهي: المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه تعالى قد علم جميع خلقه قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم وأقوالهم وأعمالهم وجميع حركاتهم وسكناتهم، وإسرارهم وعلانيتهم ومن هو منهم من أهل الجنة، ومن هو منهم من أهل النار، قال تعالى: ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ﴾ ([٢١١])، وقال سبحانه: ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في

السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ ([٢١٢])، وقال: ﴿وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾ ([٢١٣])، وقال ﷺ : (إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم)([٢١٤])، ولما سئل ﷺ عن أولاد المشركين قال: (الله أعلم بما كانوا عاملين)([٢١٥])، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الحديث: ((أي يعلم من يؤمن منهم ومن يكفر لو بلغوا، ثم إنه جاء في حديث إسناده مقارب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إذا كان يوم القيامة فإن الله يمتحنهم، و يبعث إليهم رسولاً في عرصة القيامة، فمن أجابه أدخله الجنة، ومن عصاه أدخله النار) فهنالك يظهر فيهم ما علمه الله سبحانه، ويجزيهم على ما ظهر من العلم، وهو إيمانهم وكفرهم، لا على مجرد العلم)) ([٢١٦]). المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله تعالى قد كتب جميع ما سبق به علمه أنه كائن، وفي ضمن ذلك الإيمان باللوح والقلم. قال تعالى: ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ ([٢١٧])، وقال سبحانه: ﴿إن ذلك في كتاب﴾ ([٢١٨])، وقال: ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ ([٢١٩])، وقال ﷺ : (ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار وإلا وقد كتب شقية أو سعيدة)([٢٢٠]). المرتبة الثالثة: الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهما متلازمتان من جهة ما كان وما سيكون، ولا ملازمة بينهما من جهة ما لم يكن ولا هو كائن، فما شاء الله تعالى فهو كائن بقدرته لا محالة، وما لم يشأ الله تعالى لم يكن لعدم مشيئة الله إياه، لا لعدم قدرة الله عليه، تعالى الله عن ذلك: ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا ﴾ ([٢٢١]). ومن أدلة هذه المرتبة قوله ﷻ: ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ ([٢٢٢])، وقوله تعالى : ﴿ من يشإ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ ([٢٢٣])، وقوله تعالى : ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ ([٢٢٤])، وقوله ﷺ : (إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء)، ثم قال ﷺ : (اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك)([٢٢٥]). المرتبة الرابعة : الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شيء، وأنه ما من ذرة في السموات ولا في الأرض ولا فيما بينهما إلا والله خالقها وخالق حركاتها وسكناتها، ﷻ لا

خالق غيره ولا رب سواه، قال تعالى: ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾ ([٢٢٦])، وقال سبحانه: ﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض﴾ ([٢٢٧])، وقال تعالى: ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾ ([٢٢٨])، وقال تعالى: ﴿ والله خلقكم وما تعملون﴾ ([٢٢٩])، وعن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً: (إن الله يصنع كل صانع وصنعته)([٢٣٠]). والإيمان بالقدر نظام التوحيد، كما أن الإيمان بالأسباب التي توصل إلى خيره وتحجز عن شره هي نظام الشرع، ولا ينتظم أمر الدين ويستقيم إلا لمن آمن بالقدر وامتثل الشرع، فمن نفى القدر زاعماً منافاته للشرع فقد عطل الله عن علمه وقدرته، وجعل العبد مستقلاً بأفعاله خالقاً لها، فأثبت مع الله تعالى خالقاً، بل أثبت أن جميع المخلوقين خالقون، ومن أثبت القدر محتجاً به على الشرع، نافياً عن العبد قدرته واختياره فقد نسب الله تعالى إلى الظلم. وليعلم أن الله ﷻ الذي أمرنا بالإيمان بالقضاء والقدر، أمرنا بالعمل والأخذ بالأسباب، فقال تعالى: ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم﴾ ([٢٣١])، وقال الرسول ﷺ: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) ([٢٣٢])، وفي هذا رد على المتخاذلين، المستسلمين لأهوائهم وشهواتهم، محتجين بتقدير الله تعالى ذلك عليهم، فعلى المسلم أن يحرص على حسن الاتباع لما جاء به الرسول ﷺ، مع إخلاص العمل لله تعالى، وسلامة العقيدة، والاجتهاد بالأخذ بالأسباب، والسعي وبذل الجهد، فمن ترك الأسباب محتجاً بالقدر فقد عصى الله تعالى وخالف شرعه. والمؤمنون حقاً يؤمنون بالقدر خيره وشره وأن الله خالق أفعال العباد، وينقادون للشرع أمره ونهيه، ويحكمونه في أنفسهم سراً وجهراً، وأن للعباد قدرة على أعمالهم، ولهم مشيئة وإرادة، وأفعالهم تضاف إليهم حقيقة، وبحسبها كلفوا، وعليها يثابون ويعاقبون، ولكنهم لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه، ولا يشاؤون إلا أن يشاء الله ([٢٣٣]). قال أبو بكر محمد بن الحسين الآجري (ت ٣٦٠هـ): ((قد جرى القلم بأمره ﷻ في اللوح المحفوظ بما يكون، من بر أو فجور، يثني على من عمل بطاعته من عبيده، ويضيف العمل إلى العباد، ويعدهم عليه الجزاء العظيم، ولولا توفيقه لهم ما عملوا ما استوجبوا به منه الجزاء ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ ([٢٣٤])، وكذا ذم قوماً عملوا بمعصيته، وتوعدهم على العمل وأضاف العمل إليهم بما عملوا، وذلك بمقدور جرى عليهم، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء))([٢٣٥]).

وقوله ﷺ في الرواية الثانية: (واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن

ليخطئك)، هو توجيه إلى الإيمان بالقضاء والقدر، خيره وشره، فقوله: (واعلم أن مـا أخطأك) أي من المقادير فلم يصل إليك، (لم يكن) مقدراً عليك (ليصيبك)؛ لأنه بان بكونه أخطأك أنه مقدر على غيرك، (وما أصابك) منها (لم يكن) مقدراً على غيرك (ليخطئـك)، وإنما هو مقدر عليك؛ إذ لا يصيب الإنسان إلا ما قدر عليه، ومعنى ذلك: أنه قد فرغ ممـا أصابك أو أخطأك من خير وشر، فما أصابك فإصابته لك محتومة لا يمكن أن يخطئك ومـا أخطأك فسلامتك منه محتومة، فلا يمكن أن يصيبك، قال تعالى: ﴿ ما أصاب مِن مصِيبةٍ فِي الأرض ولاَ فِي أنفُسِكُم إلا فِي كِتابٍ من قبل أن نبرأها إن ذَلِك على اللـهِ يسِـير ﴾ ([٢٣٦])، وقال تعالى: ﴿ قُل لن يصِيبنا إلا ما كَتب اللّه لَنا﴾ ([٢٣٧]). وقال سـبحانه: ﴿ قُـل لو كُنتـم فِي بيوتكُـم لَبرز الذِين كُتِب عليهـم الْقَتـلُ إلَى مضاجِعِهِم ﴾ ([٢٣٨]). وثبت في الحديث الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله فيم العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل ؟ قال: (لا بل فيما جفت به الأقـلام وجرت به المقادير) قال: ففيم العمل ؟ قال: (اعملوا فكل ميسر لما خلق لـه)([٢٣٩]). فلابد من الإيمان بأن كل ما يصيب العبد مما يضره وينفعه في دنياه فهو مقدر عليه، وأنه لا يمكن أن يصيبه ما لم يكتب له ولم يقدر عليه ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهـم جميعاً. قـال تعالى: ﴿ ما أصاب مِن مصِيبةٍ إلا بِإِذْنِ اللهِ ومن يؤمِن بِاللهِ يهـدِ قَلْبـه واللـه بِكُـل شيءٍ علِيم ﴾ ([٢٤٠]). يعني أن من أصـابته مصـيبة فعلم أ ـا بقضـاء الله وقدره، فصبر واحتسب، واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه ويقيناً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيراً منه، روى ابن كثير عن ابن عباس أنه قـال في قوله تعالى: ﴿ ومن يؤمِن بِاللهِ يهـدِ قَلْبه﴾: يعني يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطـأه لم يكـن ليصيبـه ([٢٤١]) . يقول ابن دقيق العيد: ((هذا هو الإيمان بالقدر، والإيمان به واجـب، خيره وشـره، و إذا تيقن المؤمن هذا، فما فائدة سؤال غير الله والاستعانة بـه)) ([٢٤٢]). ومما يجب أن يعلم أن القدر السابق لا يمنع العمل، ولا يوجب الاتكال عليه، بـل يوجب الجد والاجتهاد، والحرص على العمل الصالح وحسن الاتباع، ولهذا لما أخبر النـبي ﷺ أصحابه بسبق المقادير وجريا ا وجفوف القلم ا، قال بعضهم: أفلا نتكل على كتابنـا وندع العمل؟ فقال ﷺ (اعمـلوا فكل ميسر) ([٢٤٣])، ثم قـرأ: ﴿ فَأَما من أعطَـى واتقَى (٥) وصـدق بِالْحسـنى (٦) فَسنيسـره لِلْيسرى﴾ ([٢٤٤]) . ((فالله ﷻ قدر المقادير وهيأ لها أسباباً، وهو الحكيم بما نصبه مـن

الأسباب في المعاش والمعاد، وقد يسر كلاً من خلقه لما خلقه له في الدنيا والآخرة، فهو مهيأ له ميسر له؛ فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشد اجتهاداً في فعلها والقيام بها، وأعظم منه في أسباب معاشه ومصالح دنياه، وقد فقه هذا كل الفقه من قال من الصحابة لما سمع أحاديث القدر: ما كنت أشد اجتهاداً مني الآن)) ([٢٤٥]) . وقد قال النبي ﷺ : (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز)([٢٤٦])، وروى عنه ﷺ أنه لما قيل له: أرأيت دواءً نتداوى به ورقى نسترقيها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال: (هي من قدر الله)([٢٤٧])، يعني إن الله ﷻ قدر الخير والشر، وأسباب كل منهما ([٢٤٨]). والأسباب وإن عظمت إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة، وعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتب في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، ((وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنه أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير)) ([٢٤٩]) .ولهذا جاء في الحديث عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : (لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه)([٢٥٠]). يقول ابن رجب: ((واعلم أن مدار جميع هذه الوصية من النبي ﷺ لابن عباس على هذا الأصل، وما بعده وما قبله متفرع عليه وراجع إليه، فإنه إذا علم العبد أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، من خير أو شر، أو نفع أو ضر، وأن اجتهاد الخلق كلهم جميعاً على خلاف المقدور غير مفيد شيئاً البتة، علم حينئذ أن الله تعالى وحده هو الضار النافع ، والمعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه ﷻ ، وإفراده بالاستعانة والسؤال والتضرع والابتهال، وإفراده أيضاً بالعبادة والطاعة، لأن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار، ولهذا ذم الله ﷻ من يعبد ما لا ينفع ولا يضر، ولا يغني عن عابده شيئاً، وأيضاً فكثير ممن لا يحقق الإيمان وقلبه يقدم طاعة مخلوق على طاعة الله رجاء نفعه أو دفعاً لضره، فإذا تحقق العبد تفرد الله وحده بالنفع والضر، وبالعطاء والمنع، أوجب ذلك إفراده بالطاعة والعبادة، ويقدم طاعته على طاعة الخلق كلهم جميعاً، كما يوجب ذلك أيضاً إفراده سبحانه بالاستعانة به والطلب منه)) ([٢٥١]) .ثم قال أيضاً شارحاً حديث ابن عباس : ((ثم عقب ذلك بذكر إفراد الله بالسؤال و إفراده بالاستعانة، وذلك يشمل حال الشدة وحال الرخاء، ثم ذكر بعد هذا كله الأصل الجامع الذي تنبني عليه هذه المطالب كلها ،وهو تفرد الله ﷻ بالضر والنفع والعطاء والمنع، وإنه لا يصيب العبد في ذلك كله إلا ما سبق تقديره و قضاه له، و أن الخلق كلهم عاجزون عن إيصال نفع أو ضر غير مقدر في الكتاب السابق، و تحقيق هذا يقتضي انقطاع العبد عن التعلق بالخلق، وعن سؤالهم واستعانتهم ورجائهم بجلب نفع أو دفع ضر، وخوفهم من إيصال ضر أو منع نفع، وذلك يستلزم إفراد الله سبحانه بالطاعة و العبادة أيضاً، وأن يقدم طاعته على طاعة الخلق كلهم جميعاً، وأن يتقي سخطه، ولو كان فيه سخط الخلق جميعاً)) ([٢٥٢]) .

وفي قوله ﷺ: (وما أصابك لم يكن ليخطئك) أعظم وقاية ضد القلق النفسي، و سائر

الهواجس والاضطرابات النفسية، التي يشتكي منها كثير من الناس، حتى سماها بعضهم بمرض العصر، فمن آمن بهذا الحديث اطمأن قلبه وانشرح صدره، وعلم أن كل ذلك بقضاء الله وقدره، وأنه خير له، فيبتعد عن التضجر والزفرات والحسرات، جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ : (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان) ([٢٥٣]) .

المبحث الثامن

في قوله ﷺ :(رفعت الأقلام وجفت الصحف)أي تركت الكتابة في الصحف، لفراغ الأمر وانبرامه منذ أمد بعيد، فقد تقدم كتابة المقادير كلها، فما كتبه الله فقد انتهى ورفع، والصحف جفت من المداد، ولم يبق مراجعة . فما أخطئك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. وهذا يدل على أن ما في علم الله تعالى، أو ما أثبته سبحانه في أم الكتاب ثابت لا يتبدل ولا يتغير ولا ينسخ، وما وقع وما سيقع كله بعلمه تعالى وتقديره ([٢٥٤]) ، وهذه الجملة من الحديث تأكيد لما سبق من الإيمان بالقدر، والتوكل على الله وحده، وأن لا يتخذ إلهاً سواه، فإذا تيقن المؤمن هذا فما فائدة سؤال غير الله والاستعانة به ، ولهذا قال : (رفعت الأقلام وجفت الصحف): أي لا يكون خلاف ما ذكرت لك بنسخ ولا تبديل ([٢٥٥]).

ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ ما أصاب مِن مصيبةٍ فِي الأرض ولاَ فِي أنفُسِكُم إلا فِي كِتابٍ من قَبل أن نبرأها إن ذَلِكَ على اللهِ يسِير﴾ ([٢٥٦])

وقوله ﷺ (إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يارب، وما أكتب ؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) ([٢٥٧]) .

وقوله: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة)([٢٥٨]).

وعن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (فرغ الله إلى كل عبد من خمس: من أجله، ورزقه، وأثره، ومضجعه، وشقي أو سعيد) ([٢٥٩]).

وعن جابر ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله فيم العمل اليوم ؟ أفيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل ؟ قال: (لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير) قال: ففيم العمل ؟ قال: (اعملوا فكل ميسر) ([٢٦٠]).

وعن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: (خلق الله كل نفس، وكتب حياتها، ورزقها، ومصائبها)([٢٦١]).

وفي قوله: (رفعت الأقلام) جاءت (الأقلام) في هذا الحديث وفي غـيره، مجموعـة، فدل ذلك على أن للمقادير أقلاماً، وقد ذكر العلماء أقساماً للأقلام، وهي ([٢٦٢]):

القلم الأول: العام الشامل لجميع المخلوقات، وهو القلم الذي خلقه الله وكتب بـه في اللوح المحفوظ مقادير الخلائق، وهذا أول الأقلام وأفضلها وأجلها، كما دل على ذلك قوله ﷺ : (أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، قال: يارب، وما أكتب ؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) .

القلم الثاني: قلم الوحي: وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله، وقـد رفـع النبي ﷺ ليلة أسري به إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام ([٢٦٣])، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوجبه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبر ا أمر العالم العلوي والسفلي .

القلم الثالث: حين خلق آدم ، وهو قلم عام أيضاً، لكن لبني آدم.

القلم الرابع: حين يرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه، فينفخ فيه الروح، ويأمر بأربـع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، كما قال ﷺ :(إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثـل ذلـك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويأمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجلـه، وعملـه، وشقي أم سعيد) ([٢٦٤]) الحديث.

القلم الخامس: الموضوع على العبد، الذي بأيدي الكرام الكاتبين، الذين يكتبـون مـا يفعله بنو آدم، كما قال تعالى: ﴿ وإن عليكُم لحافِظِين (١٠) كِراما كاتِبِين (١١) يعلمونَ ما تفعلُونَ ﴾ ([٢٦٥]) .

وقوله ﷺ : (رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وا نون حتى يعقل، وعـن الصبي حتى يحتلم) ([٢٦٦]).

وقد اختلف العلماء هل القلم أول المخلوقات أو العرش ؟

- فقيل بأن العرش قبل القلم لقوله ﷺ : (كتب الله مقادير الخلائق قبـل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على المـاء)، فهـذا صـريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم.

- وقيل بأن القلم أول المخلوقات بدليل قوله ﷺ : (أول ما خلـق الله تعـالى القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب وما أكتب ؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقـوم الساعة).

ولعل القول الأول أصح للحديث الصريح الصحيح السابق الذي يدل على أن العرش مخلـوق قبل تقدير الله مقادير الخلق، أما قوله ﷺ : (أول ما خلق الله القلـم ف قال لـه اكتب) فإن معناه: عند أول خلقه قال له اكتب، ويدل عليه لفظ: (أول ما خلق اللـه القـلم قال له اكتب)، بنصب (أولَ) و (القلم)، وحملت رواية الرفع (أولُ) و(القلـم)

على أن القلم أول المخلوقات من هذا العالم، فيتفق الحديثان؛ إذ حديث القـول الأول يدل على أن العرش سابق على التقدير، وحديث القول الثاني يدل على أن التقدير مقارن لخلق القلم ([٢٦٧]).

وقد رجح القول الأول ابن تيمية، وذكر أنه مذهب ((كثير في السلف والخلف)) ([٢٦٨]).

هذا وقد رجح بعض أهل العلم أن القلم أول مخلوق، واستدل برواية: (إن أول شيء خلقه الله تعالى القلم، وأمره أن يكتب كل شيء يكون) ([٢٦٩])، قال الألباني: ((وفيه رد على من يقول بأن العرش هو أول مخلوق، ولا نص في ذلك عن رسـول الله ﷺ ...، فالأخذ بهذا الحديث – وفي معناه أحاديث أخرى – أولى؛ لأنه نص في المسألة، ولا اجتهاد في مورد النص، كما هو معلوم، وتأويله بأن القلم مخلوق بعد العرش باطل؛ لأنه يصح مثل هذا التأويل لو كان هناك نص قاطع على أن العـرش أول المخلوقـات كلـها ، ومنهـا القلـــم ، أما ومثل هذا النص مفقـود، فلا يجـوز هذا التأويل)) ([٢٧٠]) .

والإيمان باللوح والقلم هو من الإيمان بالقضاء والقدر، ولهذا يذكرهما أهل العلم ضمن الإيمان بالمرتبة الثانية من مراتب الإيمان بالقدر، وهي مرتبة الإيمان بكتابة المقادير، ويدخـل في هذه المرتبة خمسة من التقادير هي:

الأول: التقدير الأزلي: وهو كتابة المقادير قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألـف سنة، عندما خلق الله القلم، قال تعالى: ﴿ ما أصاب مِن مصيبةٍ فِي الأرض ولاَ فِي أنفُسِكُم إلا فِي كِتابٍ من قَبل أن نبرأها إن ذَلِك على اللهِ يسِير ﴾، وقال الرسول ﷺ : (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألـف سـنة ، قـال : وكـان عرشـه على المـاء) ([٢٧١]) ، وقال ﷺ : (أول ما خلق الله القلم، فقال له: أكتـب، فقال: يا رب وماذا أكتب ؟ فقال: أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) ([٢٧٢]) .

الثاني: التقدير العمري، حين أخذ الميثاق، قال تعالى: ﴿ وإذْ أخذَ ربك مِن بنِي آدم مِن ظُهورِهِم ذُريتهم وأشهدهم على أنفُسِهِم ألست بِربكُم قَالُوا بلَى شهدنا أن تقُولُـوا يـوم القِيامةِ إنا كُنا عن هذَا غَافِلِين﴾ ([٢٧٣]) ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان - يعني عرفه - فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنشرها بين يديه، ثم كلمهـم قبلاً، قال ﷻ : ﴿ ألست بِربكُم قَـالُوا بلـى شهدنا ﴾ إلى قولـه تعالى : ﴿ المبطلون ﴾ ([٢٧٤]) .

الثالث: التقدير العمري أيضاً، عند تخليق النطفة في الرحم، قـــال تعالى: ﴿ هـو أعلَم بِكُم إذْ أنشأكُم من الأرض وإذْ أنتم أجِنةٌ فِي بطُون أمهاتِكُم فَلا تزكوا أنفُسكُم هـو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذا أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هـو

أعلم بمن اتقى ﴾ ([٢٧٥]) وقوله ﷺ : (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربـــع كلمـــات ، يكتب رزقـه ، وأجلـه ، وعملـه ، وشقي أو سعيد ...) ([٢٧٦]) الحديث .

الرابع : التقدير الحولي، في ليلة القدر، قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ﴾ ([٢٧٧]).

الخامس: التقدير اليومي، قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ ([٢٧٨]).

((وكل هذه التقادير كالتفصيل في القدر السابق، وهو الأزلي الذي أمر الله تعالى القلم عند خلقه أن يكتبه في اللوح المحفوظ، وبذلك فسر ابن عمـــر وابن عـــباس ﷺ قولـــه تعالـــى : ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ([٢٧٩])، وكـل ذلـك صادر عن علم الله الذي هو صفته تبارك وتعالى)) ([٢٨٠]).

المبحث التاسع

في قوله ﷺ :(تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)

يعني أن العبد إذا اتقى الله وحفظ حدوده وراعى حقوقه في حال رخائه، فقد تعـرف بذلك إلى الله، فعرفه ربه في الشدة، ورعى له تعرفه إليه في الرخاء، فنجاه من الشدائد بهذه المعرفة.

يذكر ابن رجب أن معرفة العبد لربه نوعان: ((أحدهما – المعرفة العامة، وهي معرفـة الإقرار به والإيمان، وهذه عامة للمؤمنين.

والثاني - معرفة خاصة تقتضي ميل القلب إلى الله بالكلية، والانقطاع إليه)).

كما يذكر ابن رجب أن معرفة الله لعبده نوعان، أيضاً، هما: الأول: معرفة عامة، وهي علمه تعالى بعباده واطلاعه عليهم، قال تعالى: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتـُـمْ أَجِنَّـةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكـــُـم ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَـمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾.

والثاني: معرفـــــة خاصـــــة، وهـي تقتضــــي المحبـــــة وإجابة الدعاء ونحو ذلك ([٢٨١]).

ويقول ابن علان (ت ١٠٥٧ هـ): ((...، (تعرف) بتشديد الـراء: أي تحـبب (إلى الله في الرخاء) بالدأب في الطاعات، والإنفاق في وجوه القرب والمثوبات، حتى تكون

متصفاً عنده بذلك، معروفاً به، (يعرفك في الشدة) بتفريجها عنك، وجعله لك من كل ضيق فرجاً، ومن كل هم مخرجاً، بواسطة ما سلف منك من ذلك التصرف)) ([٢٨٢]).

والمراد بقوله ﷺ (يعرفك في الشدة): أي المعرفة الخاصة التي تقتضي النصر والتأييد والقرب، قال ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه) ([٢٨٣]).

فمتى تعرف العبد إلى الله في الرخاء المعرفة التامة الخاصة، وذلك بحرصه على إكمال إخلاص عبادته، وخضوعه لله تعالى، واتباعه لرسوله ﷺ، عرفه الله في كل وقت، وبخاصة في وقت الشدائد والكرب، فينصره الله ويؤيده، ويسدده في سمعه وبصره، ويده ورجله، ويعطيه سؤاله، ويعيذه ويحفظه.

يقول ﷺ : (من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب؛ فليكثر الدعاء في الرخاء) ([٢٨٤]).

ويونس عليه السلام إنما نجاه الله بسبب ذكره الله في الرخاء، قال تعالى: ﴿ وإن يونس لمن المرسلين (١٣٩) إذ أبق إلى الفلك المشحون (١٤٠) فساهم فكان من المدحضين (١٤١) فالتقمه الحوت وهو مليم (١٤٢) فلولا أنه كان من المسبحين (١٤٣) للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ ([٢٨٥]).

يقول الطبري: ((يقول تعالى ذكره: (فلولا أنه) يعني يونس كان من المصلين لله، قبل البلاء، الذي ابتلي به من العقوبة بالحبس في بطن الحوت، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ... ، ولكنه كان من الذاكرين الله قبل البلاء، فذكره الله في حال البلاء؛فأنقذه ونجاه)) ([٢٨٦])، وأشار إلى هذا القول ابن كثير بقوله : ((قيل لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء)) ثم نسبه إلى بعض أهل العلم. ([٢٨٧]) واستدل عليه بحديث ابن عباس([٢٨٨])، وقيل معناه لولا أنه سبح الله في بطن الحوت، وقال ما قال من التهليل والتسبيح، والتوبة إلى الله([٢٨٩]).

وفرعون كان طاغياً باغياً، فلما أدركه الغرق ﴿ قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ ([٢٩٠]) فقال الله تعالى له: ﴿ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ ([٢٩١])، أي أهذا الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه، وكنت من المفسدين في الأرض الذين أضلوا الناس، فهو سبحانه يبين أن هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له ([٢٩٢]) .

ومن اتقى الله في جميع أحواله جعل الله له مخرجاً من المضائق والمحن،

يقول الله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا (٢) ويرزقْه مِن حيثُ لا يحتسِب﴾ ([٢٩٣]) أي من يتق الله يجعل له مخرجاً ونجاه من كل كرب في الدنيا والآخرة، ومن كل شيء ضاق على الناس، ويرزقه من جهة لا تخطر بباله، ولهذا يروى عن ابن مسعود ﷺ أنه قال عن هذه الآية بأنها أكبر آية في القرآن فرجاً ([٢٩٤])، ((فكل من اتقى الله ولازم مرضاته في جميع أحواله، فإن الله يثبته في الدنيا والآخرة، ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة ، ... ، ويسوق الله الرزق للمتقي من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به)) ([٢٩٥]) .

وإذا كان من يتقي الله يجعل له فرجاً ومخرجاً، فإن من لم يتق الله يقع في الآصار والأغلال والشدائد التي لا يقدر على التخلص منها، والخروج من تبعاتها ([٢٩٦])، قال تعالى : ﴿إِن ينصركُم اللّه فلاَ غَالِب لكُم وإِن يخذُلكُم فَمن ذَا الذِي ينصركُم من بعدِهِ﴾ ([٢٩٧]).

وقال تعالى: ﴿إِن الذِين قَالُوا ربنا الله ثُم استقَاموا تتنزلُ عليهِم الْملاَئِكَةُ أَلا تخافُوا ولاَ تحزنوا وأَبشِروا بِالْجنةِ التِي كُنتم توعدونَ (٣٠) نحن أَولياؤكُم فِي الْحياةِ الدنيا وفِي الآخِرةِ ولَكُم فِيها ما تشتهِي أَنفُسكُم ولَكُم فِيها ما تدعونَ (٣١) نزلاً من غَفُورٍ رحِيمٍ﴾ ([٢٩٨]).

وقوله سبحانه: ﴿إِن الذِين قَالُوا ربنا اللَّه ثُم استقَاموا فَلا خَوف علَيهِم ولا هم يحزنونَ (١٣) أُولَئِك أَصحاب الْجنةِ خالِدِين فِيها جزاء بِما كَانوا يعملُونَ﴾ ([٢٩٩]).

فمن عرف الله واستقام على شرعه تنزلت عليه الملائكة بأن لا يخاف ولا يحزن، ويبشرونه بالجنة، وذلك عند موته وفي قبره وحين يبعث، وقيل بأن هذا التنزل عند الاحتضار، والصحيح بأنه في الأحوال الثلاثة المذكورة آنفاً؛ ولهذا قال ابن كثير بعد ذكره أن البشارة من الملائكة للعبد تكون عند الموت، وفي القبر، وحين البعث: ((وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جداً، وهو الواقع))([٣٠٠]).

وإذا علم من قوله ﷺ : (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) أن التعرف إلى الله في الرخاء يؤدي إلى معرفة الله لعبده في الشدة، وعلم بأن شدة الموت من أعظم الشدائد التي يلقاها العبد المؤمن، فالواجب المبادرة بالاستقامة والاستعداد للموت بالأعمال الصالحة وإخلاصها لله وحده لا شريك له، فهي السبيل إلى تنزل الملائكة على العبد المؤمن عند الاحتضار بألا يخاف ولا يحزن والبشارة له بالجنة؛ كل ذلك في وقت الشدائد والكرب عند الموت، وفي القبر، وحين البعث، فلا بد من الاستعداد لتلك الأهوال العظيمة؛ فإن المرء

لا يدري متى يفاجئه الموت، ويقبل على تلك الشدائد .

يقول الطبري في تفسير الآيات السابقة في سورة فصلت: ((يقول تعـالى ذكـره: إن الذين قالوا ربنا الله وحده لا شريك له، وبرئوا من الآلهة والأنداد، ثم استقاموا على توحيد الله، ولم يخلطوا توحيد الله بشرك غيره به، وانتهوا إلى طاعته فيما أمر و ـى ...، تتهبـط عليهم الملائكة عند نزول الموت م ...، قائلة: لا تخافوا ما تقدمون عليه من بعد مماتكم، ولا تحزنوا على ما تخلفونه وراءكم ...، وقيل إن ذلك في الآخرة، وقولـه : ﴿ وأبشِـروا بِالْجنةِ الَتِي كُنتم توعدونَ ﴾ يقول : وسروا بأن لكم في الآخرة الجنة التي كنتم توعدو ـا في الدنيا على إيمانكم بالله واستقامتكم على طاعته)) ([٣٠١])

ويقول في تفسير آية الأحقاف : ((يقول تعالى ذكره: إن الذين قالوا ربنا الله الذي لا إله غيره ثم استقاموا على تصديقهم بذلك فلم يخلطوه بشرك، ولم يخالفوا الله في أمره و يه، فلا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله، ولا هم يحزنـ ـ ـون على ما خلفـ ـ ـوا وراءهـ ـ ـ ـم بعد مما م، وقولـه تعالى: ﴿ أولئك أصحاب الجنة ﴾ يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين قالوا هذا القول واستقاموا أهل الجنة وسكا ا ﴿ خالدين فيها ﴾ يقول: ماكثين فيها أبداً، ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ يقول: ثوابـاً منـا لهـم، آتينـاهم ذاـك علـى أعمالـ ـ ـ ـهم الصالحة، التي كانوا في الدنيا يعملو ا)) ([٣٠٢]).

فلا بد من الاستقامة على شرع الله، والحرص على سلامة التوحيد مما قد يشوبـه، في حال الصحة والرخاء، وفي جميع الأحوال، والاستعداد للقاء الله، فمن عرف الله في هـذه الأحوال عرفه الله عند الشدائد فكان معه بتأييده وتوفيقه، يعينه ويتـولاه، ويثبتـه علـى التوحيد، في الحياة وعند الممات، ومن نسـ ـي الله في حال صحته ورخائـ ـ ـ ـ ـه، ولـ ـ ـ ـم يستعد للقائه نسـ ـ ـ ـيه الله، قال تعالى: ﴿يا أيها الذِين آمنوا اتقُوا اللـه ولْتنظُر نفْس ما قَدمت لِغدٍ واتقُوا الله إِن الله خبِير بِما تعملُونَ (١٨) ولاَ تكُونوا كَالذِين نسوا الله فَأنساهم أنفُسهم أولَئِك هم الْفَاسِقُونَ ﴾ ([٣٠٣]) .

ويجب التعرف إلى الله في رخاء العيش، وتكاثر الأموال، وذلك بأن تكـون مصادرهـا حلالاً، بعيدة عن الربا، ونحوه، وأن تؤتى زكا ا، وينفق على أوجه الخير منها، ويحذر مـن الطغيان والإنفاق على المحرمات والمنهيات، فمن تعرف إلى الله في أمواله، وتصرف فيها وفق الشرع الحكيم عرفه الله في الشدة، و ذلك بأن يسهل له أبواب الرزق، ويسدده لاستعماله على الوجه المطلوب شرعاً، ويلهمه شكره وحمد الله تعالى عليه، قال تعالى: ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا (٢) ويرزقْه مِن حيثُ لاَ يحتسِب﴾ ([٣٠٤])، وقال سـبحانه: ﴿ وألـو استقَاموا علَى الطرِيقَةِ لَأسقَيناهم ماء غَدقًا﴾ ([٣٠٥])، وقال عن أهل الكتـاب: ﴿ ولَـو أنهم أقَاموا التوراةَ والإِنجِيلَ وما أُنزِلَ إِليهـ ـم من ربهـ ـ ـ ـم لأَكَلُواْ مِن فَوقِهم ومِن

تحتِ أرجلِهم ﴾ ([٣٠٦])، أي لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه، من غير تحريف ولا تبديل، ولا تغيير، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق، والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ؛ فإن كتبهم ناطقة بتصديقه، والأمر باتباعه، حتماً لا محالة، ومن ثم (لأكلوا ...) يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء، والنابت لهم من الأرض ([٣٠٧]) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: (يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا .

ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المؤونة، وجور السلطان عليهم .

ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولو لا البهائم لم يمطروا .

ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلّط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم .

وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم) ([٣٠٨])

وفي رواية: (ما نقض قوم العهد قط إلا كان القتل بينهم، وما ظهرت فاحشة في قوم قط إلا سلط الله ﷻ عليهم الموت، ولا منع قوم الزكاة، إلا حبس الله عنهم القطر) ([٣٠٩]) .

فمن عمل لله بالطاعة في جميع أوقاته، ولا سيما في الرخاء، عرفه الله في الشدة ووجده تجاهه ينصره ويؤيده ويفرج عنه، كما جرى للثلاثة الذين أصابهم المطر فأووا إلى غار فانحدرت صخرة فانطبقت عليهم، فقالوا: انظروا ما عملتم من الأعمال الصالحة، فاسألوا الله تعالى بها، فإنه ينجيكم، فذكر كل واحد منهم سابقة سبقت له مع ربه في الرخاء، فانحدرت عنهم الصخرة، فخرجوا يمشون ([٣١٠]).

المبحث العاشر

في قوله ﷺ :(واعلم أن النصر مع الصبر)

يجب على كل مسلم أن يعلم علم اليقين أن النصر مع الصبر، فإذا صبر وفعل ما أمره الله به من وسائل النصر؛ فإن الله تعالى ينصره؛ لأن العدو يصيب الإنسان من كل جهة فقد يشعر الإنسان أنه لن يطيق عدوه فيستحسر ويدع الجهاد، وقد يشرع في الجهاد، فإذا أصابه الأذى استحسر، وتوقف، وقد يستمر، فيصيبه الألم من عدوه، فيكون عرضة لليأس والخذلان، فهذه الأمور كلها يجب الصبر عليها، والحذر من اليأس وأسبابه، وليعلم المسلم

أن الصبر من أعظم أسباب النصر ([٣١١])، قال تعالى: ﴿ ولاتهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلونَ إن كُنتم مؤمِنين (١٣٩) إن يمسسكُم قَرح فَقَد مس القَوم قَرح مثْله وتلْك الأيام نداولُها بين الناس وليعلم اللّه الذِين آمنواْ ويتخِذَ مِنكُم شهداء واللّه لا يحِب الظالِمِين ﴾ ([٣١٢]).

في هاتين الآيتين يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين لما أصيبوا يوم أحد، وقتل منهم سبعون، مسلياً لهم قائلاً: ﴿ ولا تهنوا ﴾ أي لا تضعفوا بسبب ما جرى ﴿ ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ أي العاقبة والنصر لكم أيها المؤمنون، ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ أي إن كنتم قد أصابتكم جراح، وقتل منكم طائفة فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح، ثم قال تعالى: ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ أي نديل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ أي لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء، ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ يعني يقتلون في سبيله، ويبذلون مهجهم في مرضاته، ثم قال تعالى : ﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾([٣١٣])، أي يكفر عنهم ذنوبهم، إن كانت لهم ذنوب، وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به، أما الكافرون فإنهم إذا ظفروا وبغوا وبطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم. ([٣١٤])

ومن كلام السعدي في تفسير هذه الآيات قوله : ((يقول تعالى مشجعاً لعباده المؤمنين، ومقوياً لعزائمهم، ومنهضاً لهممهم، ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ أي: ولا تهنوا أو تضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتم بهذه البلوى؛ فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وأعون لعدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم، وصبروها، وادفعوا عنها الحزن، وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالمؤمن المبتغي ما وعد الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي له ذلك ...)) ([٣١٥])

وقال تعالى: ﴿ ولاَ تهنواْ فِي ابتِغاء الْقَومِ إن تكُونوا تألَمونَ فَإنهم يألَمونَ كَما تألَمونَ وترجونَ مِن اللّهِ ما لا يرجونَ وكَانَ اللّه علِيما حكِيما﴾ ([٣١٦])

أي لا تضعفوا في طلب عدوكم، بل جدوا فيهم، وقاتلوهم، واقعدوا لهم كل مرصد، فكما يصيبكم الجراح والقتل، كذلك يحصل لهم، وأنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم وإياهم من الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد كما وعدكم إياه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وهم لا يرجون شيئاً من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم، وأشد رغبة فيه، وفي إقامة كلمة الله وإعلائها، وهو ﷻ

أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه، وينفذه ويمضيه في أحكامه الكونية والشرعية، فـإذا صبر الإنسان وصابر ورابط؛ فإن الله سبحانه ينصره ([٣١٧]).

فهذه النصائح والتوجيهات توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة، وتضاعف النشـاط، والشجاعة التامة؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي، إن ناله، ليس كمن يقاتـل ويصبر لنيل السعادة الدنيوية والأخروية، والفوز برضوان الله وجنته ([٣١٨]).

وفي قوله ﷺ : (واعلم أن النصر مع الصبر) تنبيه على أن النـاس في هـذه الـدار معرضون للمحن والمصائب وطروق المنغصات والمتاعب، لا سيما الصالحون منهم، فينبغي للمسلم أن يصبر ويحتسب، ويرضى بالقضاء والقدر، وينتظر وعد الله تعالى له بأن عليـه صلوات من ربه ورحمة وبأنه المهتدى، قال تعالى: ﴿ ولَنبلُونكُم بِشيءٍ من الْخوف والْجوع ونقْص من الأَموال والأنفُس والثمراتِ وبشر الصابِرِين (١٥٥) الَّذِين إِذَا أَصابتهم مصِيبةٌ قَالُواْ إِنا لِلّهِ وإِنـا إِلَيهِ راجِعونَ (١٥٦) أُولَـئِك علَيهـــم صلَوات من ربهِم ورحمةٌ وأُولَـئِك هم الْمهتدون﴾ ([٣١٩])، فالنصر من الله تعالى للعبد على جميع أعـداء دينـه ودنياه إنما يوجد (مع الصبر) على طاعته، وعن معصيته، فهو سبب للنصر، ولهـذا فـإن الغالب على من انتصر لنفسه عدم النصر والظفر، وعلى من صبر ورضي بقضاء الله تعالى وحكمه تعجيلهما له كما هو المعهود من مزيد كرمه وإحسانه ([٣٢٠]).

ولهذا يقول الله تعالى: ﴿ ولَئِن صبرتم لَهو خير للصابِرين ﴾ ([٣٢١])؛ لأنـه سـبب لنصرهم على أعدائهـم وأنفسـهـــم وإعـــلاء لدرجا ـــم ، وقـال تعالى: ﴿ كَم من فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبـــت فِئَةً كَثِيرةً بِإِذْنِ اللّهِ واللّه مع الصابِرِين ﴾ ([٣٢٢]).

يقول السعدي في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجـوع ....﴾ الآيات: ((أخبر تعالى أنه لا بد أن يبتلي عباده بالمحن؛ ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده؛ لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان، ولم يحصـل معها محنة، لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهـل الشر، هذه فائدة المحن ...، فهذه الأمور لا بد أن تقع، لأن العليم الخبير أخبر ا فوقعـت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجـازع حصلـت لـه المصيبتان، فوات المحبوب، وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامتثال أمر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصـبر والرضا والشكران، وحصل له السخط الدال على شدة النقصان.

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن التسخـط قـولاً وفعلاً، واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبـة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه؛ لأ ا صارت طريقاً لحصول ما هو خير له

وأنفع منها؛ فقد امتثل أمر الله، وفاز بالثواب؛ فلهذا قال تعالى: ﴿ وبشر الصابرين ... ﴾ أي: بشرهم بأ م يوفون أجرهم بغير حساب، فالصابرون هم الذين فـازوا بالبشـارة العظيمة، والمنحة الجسيمة ...، فكون العبد لله، وراجعاً إليه، من أقوى أسباب النصر.....

ودلّت هذه الآية على أن من لم يصبر فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله، والعقوبة والضلال والخسارة، فما أعظم الفرق بين الفريقين ...، فقد اشتملت هاتان الآيتان علـى توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها؛ لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت، وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابرين من الأجر، ويعلم حال غـير الصابر بضد حال الصابر...)) ([٣٢٣]).

ويقول ﷺ : (عجباً لأمر المؤمن . إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له) ([٣٢٤]).

وقال ﷺ : (إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومـن جـزع فلـه الجزع)([٣٢٥])، يدل هذا الحديث على أن صاحب البلاء يكون محبوباً عند الله تعالى إذا صبر على البلاء ورضي بقضاء الله ﷻ.

ومن الأدلة التي تؤكد أن النصر مع الصبر كثرة الآيات والأحاديث التي تأمر بالصـبر عند لقاء العدو، منها: قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذِين آمنوا إِذَا لَقِيتم فِئَةً فَاثْبتوا واذْكُروا اللّـه كَثِيرا لعلكُم تفْلحون ﴾ ([٣٢٦])، وقوله: ﴿ فَإِن يكُن منكُم مئَةٌ صابِرةٌ يغلِبوا مِئَتيـن وإِن يكُن منكُم أَلف يغلِبوا أَلْفَينِ بِإِذْنِ اللّهِ واللّه مع الصابِرِين ﴾ ([٣٢٧])، وقوله تعالى في قصة طالوت : ﴿ فَلَمـا جاوزه هو والذِين آمنوا معه قَالُوا لا طَاقَةَ لَنا الْيوم بِجالُوت وجنـودِهِ قَالَ الذِين يظُنونَ أنهم ملاقُو اللّهِ كَم من فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبت فِئَةً كَثِيرةً بِإِذْنِ اللّهِ واللّـه مـع الصابِرِين ﴾ ([٣٢٨])، وقولـه : ﴿بلَى إِن تصبِروا وتتقُوا ويأتوكُـم من فَورِهِـم هـذَا يمدِدكُم ربكُم بِخمسةِ آلافٍ من الْملآئِكَةِ مسومِين ﴾ ([٣٢٩])، وقوله: ﴿ يا أيهـا الذِين آمنوا اصبِروا وصابِروا ورابِطُوا واتقُوا اللّه لَعلكُم تفْلِحون﴾ ([٣٣٠]).

وقوله ﷺ : (لا تمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا) ([٣٣١]) .

والمسلم في هذه الحياة معرض لفتن كثيرة، ومعارك متنوعة، وابتـلاءات في الأمـوال والأنفس، وأذى من المشركين والمخالفين، وأعظم أسباب الانتصار على كل هذا العقيـدة السليمة، والعمل الصـالح، والصبر والاحتسـاب، قـال تعـالى: ﴿ لَتبلَـون فِـي أموالِكـُم وأنفُسِكُم ولَتسمعن مِن الذِين أُوتوا الْكِتاب مِن قَبلِكُم

ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصـ ـ ـ ـبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمـور ﴾ ([٣٣٢]) .

وإذا عظمت المحنة كان الصبر للمؤمن الصالح ((سبباً لعلو الدرجة، وعظيم الأجر، كما سئل النبي ﷺ أي الناس أشد بلاء ؟ قال: (الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليـه خطيئـة) ([٣٣٣])، وحينئذ يحتاج من الصبر إلى ما لا يحتـ ـ ـ ـ ـاج إليه غيـ ـ ـ ـ ـره، وذاـك هـو سـ ـ ـ ـبب الإمامة في الدين كما قال تعالى: ﴿ وجعلنا منهم أئمةً يهدونَ بأمرنا لمـا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنونَ﴾ ([٣٣٤]) ، فلابد من الصبر على فعل الحسن المأمور، وتـرك السيئ المحظور، ويدخل في ذلك الصبر على الأذى، وعلى ما يقال، والصبر على ما يصيبه من المكاره، والصبر عن البطر عند النعم، وغير ذلك من أنواع الصبر، ولا يمكن العبـد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن له، ويتنعم به، وهو اليقين، ..؛ فالحاجة إلى السماحة والصبر عامة لجميع بني آدم، لا تقوم مصلحة دينهم ولا دنياهم إلا بهـا)) ([٣٣٥]) . فالـذي يستقيم على شرع الله ويحفظ حدوده ، ويصبر على العبادة ، وعلـى مـا يصيبـه مـن الابتلاءات ، ويرضى بقضاء الله وقدره ، يتولاه الله ، ويوصل إليه مصالحه، وييسـر لـه منافعه الدينية والدنيوية ، وينصره على عدوه ، ويدفع عنه كيد الفجار وتكالب الأشرار ، قال تعالى: ﴿ فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير﴾ ([٣٣٦]) ، ومن كان الله مولاه وناصره فلا خوف عليه، ومن كان الله عليه فلا عز له، ولا قائمـة تقـوم لـه ([٣٣٧]) .

فالصبر أمر واجب لا بد منه ؛ فإن الله تعالى أمر بالصبر ووعد عليه الأجـر العظيـم ، فـ ـال تعالـ ـى : ﴿ إنما يوفى الصابرونَ أجرهم بغيـر حسـاب﴾ ([٣٣٨]) ، وقـال سبحانه: ﴿ وبشر المخبتين (٣٤) الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على مـا أصابهم﴾ ([٣٣٩]) ، وقال: ﴿ والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولـئـ ـك الذين صدقـ ـ ـ ـ ـ ـوا وأولـئك هـم المتـ ـقونَ ﴾ ([٣٤٠]) ، وقـال: ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ ([٣٤١]) .

ويقول الرسول ﷺ : (من يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاءً خيراً ولا أوسع من الصبر) ([٣٤٢]) .

ولهذا قال عمر بن الخطاب: ((وجدنا خير عيشنا الصبر))([٣٤٣]) .

كما يجب أن يكون الصبر عند الصدمة الأولى للمصيبة أو الحادثة، قال ﷺ : (إنما الصبر عند الصدمة الأولى) ([٣٤٤]) .

قال ابن حجر: ((والمعنى إذا وقع الثبات أول شيء يهجم على القلب من مقتضيات الجزع فذلك هو الصبر الكامل ، الذي يترتب عليه الأجر)) ([٣٤٥])، ثم نقل قول الخطابي (ت٣٨٨هـ): ((المعنى أن الصبر الذي يحمد عليه صاحبه ما كان عند مفاجأة المصيبة، بخلاف ما بعد ذلك فإنه على الأيام يسلو)) ([٣٤٦]).

فالصبر واجب في كل الأحوال، فيجب الصبر على العبادة وإقامة شرع الله تعالى، ويجب الصبر وحبس النفس عن المحرمات والمنهيات، ويجب الصبر عند وقوع المصائب والابتلاءات، وفي ميادين القتال ومنازلة الكفار.

أما بالنسبة إلى الرضا بالقضاء، فيختلف حكمه باختلاف الأمور السابقة؛ فإن الرضا بالواجبات الشرعية واجب من حيث إنه قدر الله وقضاؤه، ومن حيث المقضي إذ الرضا بالواجبات الشرعية والعمل بها واجب، أما بالنسبة للمعاصي والمحرمات فمن حيث القضاء الذي هو فعل الله فيجب الرضا و أن الله تعالى حكيم ولولا حكمته اقتضت وجودها ما وقعت، وأما من حيث المقضي وهو معصية الله والوقوع في المحرمات فيجب عدم الرضا بها والسعي لإزالتها، أما المصائب والابتلاءات فيجب الرضا بها من حيث إنها قضاء الله وفعله، أما الرضا من حيث وقوعها على العبد فإنه مستحب عند جمهور أهل العلم ([٣٤٧]).

وأما الفرق بين الصبر والرضا؛ فإن الصبر كف النفس و حبسها عن التسخط مع وجود الألم، والرضا يوجب انشراح الصدر وسعته، وإن وجد الإحساس بأصل الألم، لكن الرضا يخفف الإحساس بالألم ([٣٤٨]) .

يقول ابن القيم: ((وأما حديث (الرضا بالقضاء) فيقال: أولاً: بأي كتاب: أم بأي سنة، أم بأي معقول علمتم وجوب الرضا بكل ما يقضيه ويقدره ؟ بل بجواز ذلك، فضلاً عن وجوبه ؟ هذا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأدلة العقول ليس في شيء منها الأمر بذلك، ولا إباحته، بل من المقضي ما يرضى به، ومنه ما يسخطه ويمقته، فلا نرضى بكل قضاء ..، ويقال: ثانياً: هاهنا أمران (قضاء) وهو فعل قائم بذات الرب تعالى ؛ و (مقضي) وهو المفعول المنفصل عنه، فالقضاء خير كله، وعدل وحكمة، فيرضى به كله، والمقضي قسمان، منه ما يرضى به، ومنه ما لا يرضى به ...، ويقال: ثالثاً: القضاء له وجهان: أحدهما: تعلقه بالرب تعالى، ونسبته إليه، فمن هذا الوجه يرضى به كله، الوجه الثاني: تعلقه بالعبد، ونسبته إليه، فمن هذا الوجه ينقسم إلى ما يرضى به، وإلى ما لا يرضى به)) ([٣٤٩])

وفي موضع آخر ذكر ابن القيم أن الناس تنازعوا في الرضا بالقضاء ((هل هو واجب أو مستحب ؟ على قولين، وهما وجهان لأصحاب أحمد، فمنهم من أوجبه واحتج على وجوبه بأنه من لوازم الرضا بالله رباً، وذلك واجب ...، ومنهم من قال هو مستحب غير واجب؛ فإن الإيجاب يستلزم دليلاً شرعياً، ولا دليل يدل على الوجوب، وهذا القول أرجح؛ فإن الرضا من مقامات الإحسان، التي هي من أعلى المندوبات)) ([٣٥٠]) ، ولعل مراده هنا الرضا بالمصائب من حيث وقوعها على العبد، بدليل قوله بعد ذلك : ((الحكم والقضاء نوعان: ديني وكوني، فالديني يجب الرضا به، وهو من لوازم الإسلام، والكوني منه ما يجب الرضا به كالنعم، التي يجب شكرها، ومن تمام شكرها: الرضا بها، ومنه ما لا يجوز الرضا به كالمعايب والذنوب التي يسخطها الله، وإن كانت بقضائه وقدره، ومنه ما يستحب الرضا به كالمصائب، وفي وجوبه قولان، هذا كله في الرضاء بالقضاء الذي هو المقضي، وأما القضاء الذي هو وصفه سبحانه وفعله، كعلمه وكتابته وتقديره ومشيئته فالرضا به من تمام الرضا بالله رباً وإلهاً ومالكاً ومدبراً)) ([٣٥١])

المبحث الحادي عشر

في قوله ﷺ : (واعلم أن الفرج مع الكرب)

كلما اشتدت الأمور واكتربت وضافت؛ فإن الفرج بإذن الله تعالى قريب؛ يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون ﴾ ([٣٥٢]) . ((فكلما اشتدت الأمور فانتظر الفرج من الله ﷻ)) ([353]).

يقول السعدي في تفسير هذه الآية: ((أي: هل يجيب المضطرب، الذي أقلقته الكروب، وتعسر عليه المطلوب، واضطر للخلاص مما هو فيه إلا الله وحده ؟، ومن يكشف السوء، أي : البلاء، والشر، و النقمة إلا الله وحده؟، ومن يجعلكم خلفاء الأرض ، يمكنكم منها ، ويمد لكم بالرزق ، ويوصل إليكم نعمه ، وتكونون خلفاء من قبلكم ، كما أنه سيميتكم ويأتي بقوم بعدكم ، أإله مع الله ، يفعل هذه الأفعال ؟

لأحد يفعل مع الله شيئاً من ذلك ، حتى بإقراركم أيها المشركون ؛ ولهذا كانوا إذا مسهم الضر، دعوا الله مخلصين له الدين، لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه و إزالته، ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ أي: قليل تذكركم وتدبركم للأمور التي إذا تذكرتموها ادكرتم، ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم، فلذلك ما ارعويتم ولا اهتديتم)([٣٥٤]).

والكرب إذا اشتد و أيس العبد من جميع المخلوقين، وتعلق قلبه بالله وحده، وهذا هو حقيقة التوكل على الله، وهو من أعظم ما تطلب به الحوائج، ومن توكل على ربه كفاه ([

﴿ ومن يتوكلْ على اللهِ فَهو حسبه﴾ ([٣٥٥])، ([٣٥٦]) .

فالفرج يحصل سريعاً مع الكرب، فلا دوام للكرب، وحينئذ فيحسن لمن نزل به كرب أن يكون صابراً محتسباً، راجياً سرعة الفرج مما نزل به، حسن الظن بمولاه، في جميع أموره، فالله ﷻ أرحم به من كل راحم، حتى أمه وأبيه؛ إذ هو ﷻ أرحم الراحمين .

ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وهو الذِي ينزلُ الغيثَ مِن بعدِ ما قنطُوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد ﴾ ([٣٥٧])، وقوله تعالى: ﴿ الله الذِي يرسِلُ الرياح فتثِير سحابا فيبسطُه فِي السماء كيف يشاء ويجعلُه كِسفًا فترى الودق يخرج مِن خِلالِهِ فَإِذَا أصاب بِهِ من يشاء مِن عِبادِهِ إِذَا هم يستبشِرونَ (٤٨) وإن كانوا مِن قبل أن ينزلَ عليهم من قبلِهِ لَمبلِسِين ﴾ ([٣٥٨])، فهؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قانطين من نزوله إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم جاءهم على كرب وشدة وفاقة فوقع منهم موقعاً عظيماً، فكان فرجاً وتيسيراً.

وقد قص الله تعالى في كتابه قصصاً كثيرة تتضمن وقوع الفرج بعد الكرب والشدة، كقصة نجاة نوح عليه الصلاة والسلام، ومن معه، في الفلك من الكرب العظيم، مع إغراق سائر أهل الأرض، وقصة نجاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام من النار التي ألقاه المشركون فيها، وأنه سبحانه جعلها عليه برداً وسلاماً، وقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع ولده الذي أمر بذبحه، ثم فداه الله بذبح عظيم، وقصة موسى عليه الصلاة والسلام مع أمه لما ألقته في اليم حتى التقطه آل فرعون، وقصته مع فرعون لما نجى الله موسى في البحر وأغرق عدوه، وقصص أيوب ويونس ويعقوب ويوسف عليهم الصلاة والسلام، وقصص محمد ﷺ في نصره على أعدائه ونجاته منهم في عدة مواطن، مثل قصته في الغار، ويوم بدر، ويوم أحد، ويوم حنين، وكذا قصة عائشة في حديث الإفك، والبراءة منه، وقصة الثلاثة الذين خلفوا، وغير ذلك من قصص القرآن الكريم وأخباره ([٣٥٩]) .

وفي السنة أخبار كثيرة من تفريج الكرب عند اشتدادها، كقصة الثلاثة الذين دخلوا الغار فانطبقت عليهم الصخرة، فدعوا الله بأعمالهم الصالحة ففرج عنهم([٣٦٠])، وقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وسارة مع الجبار الذي طلبها من إبراهيم عليه الصلاة والسلام فرد الله كيد الظالم ([٣٦١])، وعندما اشتكى رجل إلى النبي ﷺ، وهو قائم يخطب يوم الجمعة، احتباس المطر وجهد الناس، فرفع رسول الله ﷺ يديه فاستسقى لهم، فنشأ السحاب ومطروا إلى الجمعة الأخرى، حتى قاموا إليه ﷺ وطلبوا منه أن يستصحي لهم، ففعل فأقلعت السماء([٣٦٢])، إلى غير ذلك من القصص و الأخبار الثابتة .

والعبد معرض للمصائب والفتن، فقد تشتد عليه الأمور، وتضيق عليه الدنيا، ويتمكن منه الهم والحزن؛ فإذا صبر واحتسب، ولم ييأس من نصر الله وفرجه، والتجأ إلى مولاه

بالدعاء والتضرع، في جميع أحواله، جاءه النصر والتأييد والفرج .

يروى عن الشافعي (ت ٢٠٤هـ) قوله :

صبراً جميلاً ما أقرب الفرجا من راقـب الله في الأمور نجـا

من صدق الله لم ينـله أذى ومن رجـاه يكـون حيـث رجـا ([٣٦٣])

المبحث الثاني عشر

في قوله ﷺ :(وإن مع العسر يسراً)

أي أن كل عسر بعده يسر، بل إن العسر محفوف بيسرين ، يسر سـابق ويسـر لاحـق ، قال تعالى : ﴿ فَإِن مع الْعسر يسرا (٥) إِن مع العسر يسرا﴾ ([٣٦٤])

يقول السعدي : ((وقوله: ﴿ فَإِن مع الْعسر يسرا (٥) إِن مع الْعسر يسرا﴾: بشـارة عظيمة أنه كلما وجد عسر وصعوبة؛ فإن اليسر يقاربه ويصاحبه ... وتعريف (العسـر) في الآيتين يدل على أنه واحد، وتنكير (اليسر) يدل على تكراره، فلـن يغلـب عسـر يسرين .

وفي تعريفه بالألف واللام، الدال على الاستغراق والعمـوم دلالـة علـى أن كـل عـسـر، وإن بلـغ من الصعوبـة ما بلـغ ، فإنـه في آخـره اليـسر ملازم له)) ([٣٦٥]).

ويـدل على ذلك أيضـاً قوله تعالى : ﴿ سيجعلُ الله بعد عسرٍ يسرا﴾ ([٣٦٦])، ففي هذه الآية بشارة للمعسرين بأن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة، ويرفع عنهم المشقـة ([٣٦٧]) .

والكرب والعسر والشدة أمور تصقل العبد وتصفيه من الشوائب؛ إذ تزيد من تعلقـه بربه والالتجاء إليه بإخلاص وحسن اتباع، فتطهره من ذنوبه إذا صبر واحتسب، وأخلص وتابع، والعسر لا يدوم بالعبد بل معه اليسر والفرج .

وقد استدل ابن كثير ([٣٦٨]) على هذه المسألة، بحديث عن رسول الله ﷺ، جاء في إحدى رواياته، عن أبي هريرة ﷺ قال: أصاب رجلاً حاجةٌ، فخـرج إلى البريـة، فقالـت امرأته: اللهم ارزقنا ما نعتجن، وما نختبز، فجاء الرجل والجفنة ملأى عجيناً، وفي التنـور حبوب الشواء، والرحى تطحن، فقال: من أين هذا ؟ قالت: من رزق الله، فكنس ما حول

الرحى، فقال رسول الله ﷺ : (لو تركها لدارت أو طحنـت إلى يـوم القيامة) ([٣٦٩]).

و يدل على أن العسر إذا اشتد بالعبد؛ فإن بعده اليسر بإذن الله تعالى، قوله سبحانه: ﴿ حتى إِذَا استيأس الرسلُ وظنواْ أنهم قَد كُذِبواْ جاءهم نصرنـا﴾ ([٣٧٠]). وقولـه:﴿ أم حسِبتم أن تدخلُواْ الجنةَ ولما يأتكُم مثَلُ الذِين خلَواْ مِن قَبلِكُم مستهم البأساء والضـراء وزلزِلُواْ حتى يقُولَ الرسولُ والذِين آمنواْ معه متى نصر اللّهِ ألا إِن نصر اللّهِ قَرِيـب﴾ ([٣٧١])، فهنا يذكر الله تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله، في أحرج الأوقات، وكما تكون الشدة ينزل مـن النصر مثلها ([٣٧٢]) .

يقول السعدي عند تفسير الآية السابقة من سورة البقرة: ((يخبر تبارك وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة، كما فعل بمن قبلهم، فهي سنته الجارية، التي لا تتغير ولا تتبدل، أن من قام بدينه وشرعه لا بد أن يبتليه؛ فإن صبر على أمر الله، ولم يبـال بالمكاره الواقعة في سبيله، فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها، ومـن السيـادة آلتها، ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله؛ بأن صدته المكاره عما هو بصدده، وثنته المحن عن مقصده، فهو الكاذب في دعوى الإيمان؛ فإنه ليس الإيمـان بـالتحلي والتمـني، ومجـرد الدعاوى، حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه، فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم ﴿ مستهم البأساء والضراء ﴾ أي الفقر والأمراض في أبدانهم، ﴿ وزلزلوا ﴾ بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل والنفي، وأخذ الأموال، وقتل الأحبة، وأنواع المضار، حتى وصلت بهم الحال، وآل بهم الزلزال إلى أن استبطؤوا نصر الله مع يقينهم به، ولكـن لشـدة الأمـر وضيقه ﴿ يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ ، فلما كان الفرج عند الشدة، وكلما ضاق الأمر اتسع، قال تعالى: ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ فهكذا كل من قام بالحـق فإنه يمتحن، فكلما اشتدت عليه وصعبت – إذا صابر وثابر على ما هو عليـه – انقلبـت المحنة في حقه منحة، والمشاق راحات، وأعقبه ذلك الانتصار على الأعداء، وشفاء مـا في قلبه من الداء)) ([٣٧٣]).

وأخبر ﷺ عن يعقوب عليه الصلاة والسلام أنه لم ييأس من لقاء يوسف عليه الصـلاة والسلام وأخيه، وقال: ﴿ عسى اللّه أن يأتِيني بِهِم جمِيعا﴾ ([٣٧٤])، وقال لبنيـه : ﴿ يا بنِي اذْهبواْ فَتحسسواْ مِن يوسـف وأخِيهِ ولا تيأسواْ مِن روح اللّهِ إِنـه لا ييـأس

ﻪِ ـ ـن روح اللّهِ إلا القَـ ـ ـوم الكَافِرون﴾ ([٣٧٥]) .

فمن فوائد هذه القصة ((أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً؛ فإنه لمـا طـال الحزن على يعقوب، واشتد به إلى أ ى ما يكون، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب، ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، وحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطراراً، فتم بذلك الأجر، وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يبتلي أوليـاءه بالشـدة والرخـاء والعسر واليسـ ـ ـر، ليمتحن صبرهـ ـ ـم وشكرهم، ويزداد بذلك إيما م ويقينهـم وعرفا م)) ([٣٧٦]).

وقد ذكر بعض أهل العلم أموراً عدوها من حكم اقتران الفرج باشـتداد الكـرب، واقتران اليسر بالعسر، فمن ذلك :

١ - أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى وجد الإياس من كشفه من جهـة المخلـوقين، ووقع التعلق بالله وحده، ﷻ، فحينئذ يستجيب الله له ويكشف عنه ما به، فإن التوكل هو قطع الاستشراف باليأس من المخلوقين، والاعتماد على الله وحده لا شريك له، والتوكـل على الله من أعظم الأسباب التي تطلب ا الحوائج؛ فإن الله يكفي من توكل عليه، كما قال تعالى: ﴿ ومن يتوكلْ على اللهِ فَهو حسبه﴾ .

٢ - أن العبد إذا وقع في عسر، واشتد عليه الكرب؛ فإنه يحتـاج إلى مجاهـدة نفسـه، والشيطان، لأن الشيطان قد يأتيه فيقنطه، فيحتاج العبد إلى مجاهدته ودفعه، فيكون ثواب ذلك دفع البلاء عنه، وتيسير أمره، وتفريج كربته، ولهذا جاء في الحـديث: (يستجـاب لأحدكم ما لم يعجل، فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي، فيدع الدعاء) ([٣٧٧]).

٣ - أن العبد إذا استبطأ الفرج، ولا سيما بعد الدعاء والتضرع، رجـع باللائمـة إلى نفسه، وبحث عن تقصيره، فأصلح خطأه، وعالج نقصه ([٣٧٨]) .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وخاتم الأنبياء والمرسلين .

وبعد .

فإنه من خلال دراسة هذا الحديث العظيم، وهذه الوصية الكريمة من رسـول الله ﷺ ، يتبين ما يلي :

١ - ضرورة تربية الناس، وبخاصة النشء على التعلق بالله تعالى، وحفظ حقوقه.

٢ - أن أعظم حقوق الله تعالى توحيده في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، والحـرص على سلامة العقيدة مما قد يشو ا من الشرك والبدع والضلالات، إذ إن سلامة العقيـدة وإخلاص العمل لله تعالى مع حسن المتابعة لرسوله ﷺ هي شروط قبول العبـادة؛ الـتي إن تأخر أحدها حبط العمل .

٣- أن من حفظ حدود الله، بفعل المأمورات واجتناب المنهيات فإن الله يحفظه في دينه ودنياه .

٤- أن تحقيق هذا الحديث والعمل به يقتضي انقطاع العبد عن التعلق بـالخلق و عن سؤالهم، واستعانتهم، ورجائهم بجلب نفع أو دفع ضر، وخوفهم من إيصال ضـر أو منـع نفع، وذلك يستلزم إفراد الله ﷻ بالطاعة والعبادة، وتقديم طاعته على طاعة الخلق كلهـم جميعاً، والحذر مما يسخطه ولو كان فيه سخط الخلق جميعاً .

٥- وجـــوب تربيـــــــة الناس وتعليمهــم الإيـمان بالقضــاء والقدر وأن ذلك لا يناقض العمل والاجتهاد في العبادة، بل يوجبه ويدعو إليه .

٦- وجوب التعرف إلى الله والالتزام بشرعه في جميع الأوقات، وبخاصـة في أوقـات الرخاء، الذي هو مظنة الفتور والنسيان، وأن ذلك التعرف هو سبب نصر الله وتأييـده في الشدة وعند الكرب والعسر .

٧- فهم هذا الحديث والعمل به من أعظم أسباب الشجاعة والإقدام والجهاد في سبيل الله، وذلك أن المسلم يعلم أن الضر و النفع بيد الله، وأن العبد لا يصيبه ضر ولا نفع إلا ما قدر عليه .

الحواشي والتعليقات

([١]) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد ١/ ٤٠٨، و١/ ٤٣٧. وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤٧٢/٣ ح ١٤٨٣.

([٢]) سورة النحل، الآية ٣٦.

([٣]) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ٥٩، ح ٢٥١٦، والإمام أحمد ١/ ٢٩٣، ٣٠٣، وأخرجه الطبراني في الكبير ح ١٢٩٨، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣١٤. وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير ٢/ ١٣١٨ ح ٧٩٥٧.

([٤]) الروايتان في مسند الإمام أحمد ١/ ٢٩٣، و١/ ٣٠٧،٣٠٣ وعند أبي يعلى ٢/ ٦٦٥، والحاكم في مستدركه ٣/ ٥٤١، والطبراني في المعجم الكبير ٣/ ١٢١. وصححه الألباني: انظر كتاب السنة لابن أبي عاصم، تخريج الألباني ١/ ١٣٩، ١٣٨، ورياض الصالحين بتحقيق الألباني ص ٦٣، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ٥/ ٤٩٦، ٤٩٧ ح ٢٣٨٢.

([٥]) متن الأربعين النووية ص ١١–١٢.

([٦]) رياض الصالحين ص ٢٨.

([٧]) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٢.

([٨]) فتح المبين لشرح الأربعين ص ١٧٢.

([٩]) شرح رياض الصالحين ص ٤٥٦.

([١٠]) انظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١٠/ ٥٣.

([١١]) انظر فتح المبين لشرح الأربعين ص ١٧١.

([١٢]) شرح الأربعين حديثاً النووية ص ٥٥.

([١٣]) انظر جامع العلوم والحكم ص ٢٤٨، ٢٤٩. وشرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥١.

([١٤]) سورة النحل، الآية ١٢٨.

([١٥]) انظر جامع العلوم والحكم ص٢٥١، وشرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥١، ٤٥٢.

([١٦]) شرح الأربعين حديثاً النووية ص ٥٥.

([١٧]) انظر جامع العلوم والحكم ص ٢٥٦، ٢٥٧.

([١٨]) انظر شرح رياض الصالحين ٢/ ٤٢٥، ٤٥٣.

([١٩]) جامع العلوم والحكم ص ٢٥٧.

([٢٠]) انظر جامع العلوم والحكم ص ٢٥٨، وشرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥٤.

([٢١]) رواه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٤٤١، وابن أبي عاصم في السنة ح ٢٤٦. وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير ح ٢١٥٠.

([٢٢]) انظر شرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥٥.

([٢٣]) المصدر السابق ٢/ ٤٥٥.

([٢٤]) فتح المبين لشرح الأربعين ص ١٧٧.

([٢٥]) سورة الشرح، الآيتان ٥، ٦.

([٢٦]) انظر قواعد وفوائد من الأربعين النووية ص ١٧٨.

([٢٧]) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

([٢٨]) انظر تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٨٥.

([٢٩]) رواه أحمد ٥/ ١٥٣، و١٦٢، والبزار ح ١٤٧، والطبراني في المعجم الكبير ح ١٦٤٧، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/ ٤١٦ ح ١٨٠٣.

([٣٠]) سورة يوسف، الآية ٦٤.

([٣١]) سورة هود، الآية ٥٧.

([٣٢]) انظر القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ص ١٠، ١٥، ٢١.

([٣٣]) سورة الشورى، الآية ٦.

([٣٤]) سورة سبأ، الآية ٢١.

([٣٥]) عقيدة المسلمين والرد على الملحدين والمبتدعين ٢/ ٣٧ - ٤١.

([٣٦]) سورة ق ، الآيات ٣١□ ٣٣.

([٣٧]) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص ١٣٦٤.

([٣٨]) سورة البقرة، الآية ٢٣٨.

([٣٩]) سورة النور، الآية ٣٠.

([٤٠]) سورة الأحزاب، الآية ٣٥.

([٤١]) سورة (المؤمنون)، الآية ٥.

([٤٢]) سورة المائدة، الآية ٨٩.

([٤٣]) رواه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٥٧، وصححه، ورواه الترمذي وحسنه ح ٢٤٠٩، وصححه ابن حبان ح ٥٧٠٣، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ٢٣.

([٤٤]) رواه الترمذي ٢/ ٦٦، وقال: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ٢٢ ح ٥١٠.

([٤٥]) رواه أحمد في المسند ٥/ ٢٨٢، والدارمي ١/ ١٦٨، وصححه ابن حبان ح ١٠٣٧، وصححه الألباني، انظر صحيح الترغيب والترهيب ح ١٩٢، ١/ ٨٦.

([٤٦]) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

([٤٧]) سورة التوبة، الآية ١١٢.

([٤٨]) سورة ق~، الآية ٣٢.

([٤٩]) رواه أحمد في المسند ١/ ٣٨٧، والترمذي ح ٢٤٥٨ في كتاب صفة القيامة باب (٢٤)، والحاكم ٤/ ٣٢٣، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ح ٢٠٠٠.

([٥٠]) انظر: نور الاقتباس ص ١٠.

([٥١]) سورة الإسراء، الآية ٣٦.

([٥٢]) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٤٠٩.

([٥٣]) عقيدة المسلمين والرد على الملحدين والمبتدعين ٢/ ٣٨.

([٥٤]) سورة محمد، الآية ٧.

([٥٥]) سورة محمد، الآية ٤.

([٥٦]) سورة فاطر، الآية ٤٤.

([٥٧]) انظر شرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥٠، ٤٥١.

([٥٨]) سورة البقرة، الآية ٢٤٥.

([٥٩]) انظر تفسير القرآن العظيم ١/ ٤١٠، وأسباب النزول ص ٩٨، ٩٩.

([٦٠]) سورة آل عمران، الآية ١٨١.

([٦١]) سورة محمد، الآية ١٧.

([٦٢]) سورة محمد، الآية ١٦.

([٦٣]) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٧٣١.

([٦٤]) رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ح ٣٣٣٤ في كتاب التفسير، وابن ماجه، كتاب الزهد ح ٤٢٤٤، وأحمد في مسنده ٢/ ٢٩٧.

([٦٥]) سورة البقرة، الآية ٤٠.

([٦٦]) سورة البقرة، الآية ١٥٢.

([٦٧]) سورة محمد، الآية ٧.

([٦٨]) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى ١١/ ١٠٧، وورواه مسلم، كتاب الذكر، باب ما يقول عند النوم ح ٢٧١٤.

([٦٩]) رواه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٢٥، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ح ١٥٤٠.

([٧٠]) رواه أحمد ٢/ ٤٠٣، وابن ماجه ح ٢٨٢٥ في كتاب الجهاد، باب تشييع الغزاة ووداعهم، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح ١٦.

(٧١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٤٥، ح ٣٤٣٩، وأحمد ٢/٧ و ٢٥ و ٣٨، وصححه ابن حبان، ح ٢٣٧٦، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح ١٤.

([٧٢]) رواه أحمد في المسند ٢/٨٧، وابن حبان ٣٣٧٦، وصححه الألباني، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/٢١.

([٧٣]) سورة يوسف، الآية ٢٤.

([٧٤]) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٣٥١، ٣٥٢.

([٧٥]) سورة الأنفال، الآية ٢٤.

([٧٦]) ذكره ابن كثير في تفسيره ٢/ ٢٨٥، وقال: رواه الحاكم في مستدركه موقوفاً. وانظر المستدرك ٢/ ٣٢٨.

([٧٧]) سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

([٧٨]) سورة محمد، الآية ١١.

([٧٩]) سورة الطلاق، الآية ٣.

([٨٠]) سورة الزمر، الآية ٣٦.

([٨١]) سورة الرعد، الآية ١١.

([٨٢]) انظر جامع البيان في تفسير القرآن ١٣/ ٧٧.

([٨٣]) انظر المصدر السابق ص ٧٨.

([٨٤]) رواه أبو داود، في الأدب ح ٥٠٧٤، وابن ماجه، في الدعاء ح ٣٨٧١، والحاكم في مستدركه ١/ ٥١٧، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ٢/ ٣٣٢.

([٨٥]) سورة النحل، الآية ٩٧.

([٨٦]) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٦٦.

([٨٧]) انظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣/ ٣٥٢□ ٣٥٥.

([٨٨]) سورة الحج، الآية ٤٠.

([٨٩]) سورة الحج، الآية ٤١.

([٩٠]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٥/ ٧٠٣، ٧٠٤.

([٩١]) سورة النحل ، الآيتان ١١٢ ، ١١٣ .

([٩٢]) سورة العنكبوت، الآية ٤٣.

([٩٣]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣/٣٧٧.

([٩٤]) انظر جامع العلوم والحكم ، ص ٤٦٦ .

([٩٥]) انظر البداية والنهاية ١٢/٨٥ ، وسير أعلام النبلاء ١٧/٦٦٨ - ٦٧١ ، وجامع العلوم والحكم ، ص ٤٦٦.

([٩٦]) انظر جامع العلوم والحكم ، ص ٤٦٦.

([٩٧]) سورة الكهف، الآية ٨٢.

([٩٨]) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٩٧.

([٩٩]) انظر المصدر السابق، وذكر هذا الأثر ابن المبارك في الزهد (٣٣٢)، والطبري في جامع البيان في تفسير القرآن ١٦/ ٧، والحاكم ٢/ ٣٦٩

([١٠٠]) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٤٣٢.

([١٠١]) جامع العلوم والحكم ، ص ٤٦٧.

([١٠٢]) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

([١٠٣]) الحلية ٣/ ١٤٨ ، ورواه ابن المبارك في الزهد (٣٣٠)، والحميدي (٣٧٣)، وانظر جامع العلوم والحكم.

([١٠٤]) الصيصية : هي الصنّارة التي يغزل بها وينسج. انظر لسان العرب ٢/ ٥٠١، والنهاية في غريب الحديث والأثر ص٥٣٣.

([١٠٥]) رواه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٦٧ ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٧٧ وقال: رجاله رجال الصحيح.

([١٠٦]) رواه الطبراني في الكبير (٦٤٣٢)، وصححه الحاكم ٣/ ٦٠٦، وانظر الحلية ١/ ٣٦٩.

([١٠٧]) حلية الأولياء ٨/ ١٠٩ ، وجامع العلوم والحكم ص ٤٦٨.

([١٠٨]) سورة الأنفال، الآية ٦٤.

([١٠٩]) انظر الرسالة التدمرية ص ١٥٣.

([١١٠]) سورة الأنفال، الآية ٦٢.

([١١١]) سورة البقرة، الآية ١٩٤.

([١١٢]) سورة البقرة، الآية ١٥٣.

([١١٣]) فتح المبين لشرح الأربعين ص ١٧٢.

([١١٤]) سورة النحل، الآية ١٢٨.

([١١٥]) سورة طه، الآية ٤٦.

([١١٦]) سورة الشعراء، الآية ٦٢.

([١١٧]) سورة التوبة، الآية ٤٠، والحديث رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، ح٣٦٥٣، ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر رضي الله عنه ح ٢٣٨١.

([١١٨]) سورة الأنفال، الآية ١٩.

([١١٩]) سورة الحديد، الآية ٤.

([١٢٠]) سورة المجادلة، الآية ٧.

([١٢١]) سورة البقرة، الآية ١٠٨.

([١٢٢]) سورة البقرة، الآية ١٨٦.

([١٢٣]) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع ح ٦٥٠٢.

([١٢٤]) انظر القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ص ٦٩.

([١٢٥]) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى ح ٢٦٨٧، وروى البخاري نحوه في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ ح ٧٤٠٥.

([١٢٦]) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٥/ ٤٦٦.

([١٢٧]) انظر نور الاقتباس ص ٢٢.

([١٢٨]) رواه البخاري، كتاب الزكاة ح ١٤٧١.

([١٢٩]) انظر شرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥٢.

([١٣٠]) سورة النساء، الآية ٣٢.

([١٣١]) سورة غافر، الآية ٦٠.

([١٣٢]) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٦٨٧.

([١٣٣]) سورة الأحقاف، الآية ٥.

([١٣٤]) سورة البقرة، الآية ٢٧٣.

([١٣٥]) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة للناس ح (١٠٤٣).

([١٣٦]) سورة المائدة، الآية ١١٦.

([١٣٧]) سورة التوبة، الآية ٣١.

([١٣٨]) سورة الشرح، الآيتان ٧،٨.

([١٣٩]) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم، كتاب الصلاة ١/ ٢٨٨، ٢٨٩.

([١٤٠]) اللمعة في الأجوبة السبعة ص ٢٢□ ٢٦، ومجموع الفتاوى ٢٧/ ٦٧ - ٦٩.

([١٤١]) سورة يونس، الآية ١٠٧.

([١٤٢]) سورة فاطر، الآية ٢.

([١٤٣]) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب رقم (٣) ح ٣٣٧٠، وأحمد ٢/ ٤٤٢، وابن ماجه ح ٣٨٢٧، وقال الألباني عنه بأنه حديث حسن، انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح ٢٦٥٤، وصحيح ابن ماجه ٣٠٨٥.

([١٤٤]) سورة البقرة، الآية ١٨٦.

([١٤٥]) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، ح ١١٤٥.

([١٤٦]) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ح ٢٥٧٧.

([١٤٧]) سورة آل عمران، الآية ١٢٨

([١٤٨]) سورة آل عمران، الآية ١٥٤.

([١٤٩]) سورة آل عمران، الآية ١٥٤.

([١٥٠]) سورة الزمر، الآية ٣٨.

([١٥١]) سورة الأنعام، الآية ١٧.

([١٥٢]) سورة فاطر، الآية ٢.

([١٥٣]) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ص ٢٧٣ .

([١٥٤]) سورة يونس، الآية ٧١ .

([١٥٥]) انظر تفسير القرآن العظيم ٤٠٧/٢ .

([١٥٦]) سورة هود، الآيات ٥٤–٥٦.

([١٥٧]) انظر تفسير القرآن العظيم ٢٣١/٢ ، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٣٤٠ .

([١٥٨]) جامع العلوم والحكم ص ٤٨١ .

([١٥٩]) نور الاقتباس ص٣١ ؛ وانظر الوافي في شرح الأربعين النووية ص ١٢٧ .

([١٦٠]) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثراً، ح (١٤٧٤) . ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، ح (١٠٤٠).

([١٦١]) رواه مسلم كتاب الزكاة، باب من تحل له المسألة، ح ١٠٤٤ .

([١٦٢]) انظر شرح السنة ١٢٥/٦ ، ١٢٦ .

([١٦٣]) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢٧/٧ .

([١٦٤]) انظر القول المفيد على كتاب التوحيد ١٣٠/٣.

([١٦٥]) انظر تفسير القرآن العظيم ٢٤/١ .

([١٦٦]) سورة هود، الآية ١٢٣.

([١٦٧]) سورة الملك، الآية ٢٩ .

([١٦٨]) سورة المزمل، الآية ٩ .

([١٦٩]) سورة هود، الآية ٨٨ .

([١٧٠]) تفسير الفاتحة ، ص ٥٢ .

([١٧١]) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص ٢٢ .

([١٧٢]) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .

([١٧٣]) جزء من حديث أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ما جاء في الفاتحة .

([١٧٤]) انظر : معالم التنزيل ٤١/١ ، وتفسير القرآن العظيم ٢٤/١ ، ٢٥ .

([١٧٥]) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص ٢٢ .

([١٧٦]) رواه مسلم ، كتاب القدر ، باب في الأمر بالقوة وترك العجز ، والاستعانة بالله ، ح ٢٦٦٤.

([١٧٧]) صحيح مسلم بشرح النووي ٢١٥/١٦.

([١٧٨]) رواه أبو داود ، كتاب النكاح ، باب في خطبة النكاح ، ح ٢١١٨، والترمذي في النكاح ، ح ١١٠٥ ، والنسائي ، في الجمعة ، باب كيف الخطبة ، ١٠٥/٣ ، وابن ماجة ، في النكاح ، باب خطبة النكاح ، ح ١٨٩٢ ، وانظر : صحيح ابن ماجة ٣١٩/١ ، ح ١٥٣.

([١٧٩]) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٢٨٧/١٨.

([١٨٠]) رواه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب الاستغفار ، ح ١٥٢٢ ، والنسائي ، في السهو ، باب نوع آخر من الدعاء ٥٣/٣ ، واحمد في المسند ٢٤٥/٥ ، وانظر: صحيح الكلام الطيب ، ح ١١٥ ، وصحيح الجامع الصغير ١٣٢٠/٢ ، ح ٣٠٦٣.

([١٨١]) رواه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب ما يقول الرجل إذا سلم ، ح ١٥١٠ ، والترمذي في

كتاب الدعوات ، باب في دعاء النبي ﷺ ، ح ٣٥٤٦، وقال : هذا حديث حسن صحيح، وانظر : صحيح سنن الترمذي ٤٦١/٣ ، ح ٣٥٥١ ، وصحيح سنن ابن ماجة ٣٢٤/٢ ، ح ٣٨٣٠.

(**[١٨٢]**) رواه أبو داود، كتاب الضحايا، باب ما يستحب من الضحايا، ح ٢٧٩٥ .

(**[١٨٣]**) دقائق التفسير ١٧٣/١ ، ١٧٤ ، وانظر منهاج السنة ٢٤٤/٤.

(**[١٨٤]**) دقائق التفسير ، ص ٢١٢.

(**[١٨٥]**) كتاب الصلاة وحكم تاركها، ص ١٠٤.

(**[١٨٦]**) سورة يوسف، الآية ١٨.

(**[١٨٧]**) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، ح ٢٦٦١.

(**[١٨٨]**) سورة الأعراف، الآية ١٢٨ .

(**[١٨٩]**) انظر تفسير القرآن العظيم ٢٢٩/٢ .

(**[١٩٠]**) سورة الأنبياء، الآية ١١٢ .

(**[١٩١]**) انظر تفسير القرآن العظيم ١٩٧/٣ .

(**[١٩٢]**) أخرجه ابن أبي شيبة ١/٦١/٢ و ١/٤٢/١٢ ، وصححه الألباني، انظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ١٧٠/٢ ح ٤٢٨ .

(**[١٩٣]**) أخرجه مسلم، في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان بن عفان ﷺ ح ٢٤٠٣ .

(**[١٩٤]**) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة، ح ٦٣٨٤ .

(**[١٩٥]**) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٨٨/١١ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ .

(**[١٩٦]**) صحيح مسلم بشرح النووي ٢٦/١٧ .

(**[١٩٧]**) انظر القول المفيد على كتاب التوحيد ١٣٠/٣ ، وشرح رياض الصالحين ٤٥٢/٢ ، ٤٥٣ .

(**[١٩٨]**) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٣٦٥ .

(**[١٩٩]**) سورة يوسف، الآية ٤٢.

(**[٢٠٠]**) سورة الأعراف، الآية ١٨٨ .

(**[٢٠١]**) سورة الحج، الآيات ١١□١٣ .

(**[٢٠٢]**) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٤٨٤ .

(**[٢٠٣]**) سورة الحج ، الآيتان ٧٣□٧٤ .

(**[٢٠٤]**) سورة الطلاق، الآية ٣ .

(**[٢٠٥]**) شرح الأربعين حديثاً النووية ص ٥٥ .

(**[٢٠٦]**) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، ح ٣.

(**[٢٠٧]**) انظر شرح رياض الصالحين ٤٥٣/٢ .

(**[٢٠٨]**) سورة آل عمران، الآية ١٢٠

(**[٢٠٩]**) انظر شرح رياض الصالحين ٤٥٤/٢□٤٥٥

(**[٢١٠]**) انظر الاستقامة ٢٧١/٢ .

(**[٢١١]**) سورة الحشر، الآية ٢١ .

(**[٢١٢]**) سورة سبأ، الآية ٣ .

(**[٢١٣]**) سورة الطلاق، الآية ١٢.

(**[٢١٤]**) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة ، ح ٢٦٦٢ .

([٢١٥]) أخرجه البخاري، كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين، ح ٦٥٩٧ ، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، ح ٢٦٥٩.

([٢١٦]) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٢٤٦/٤.

([٢١٧]) سورة يس، الآية ١٢ .

([٢١٨]) سورة الحج، الآية ٧٠.

([٢١٩]) سورة فاطر، الآية ١١ .

([٢٢٠]) رواه البخاري ، كتاب التفسير، باب تفسير سورة ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ ، ح ٤٩٤٨ ، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي، ح ٢٦٤٨.

([٢٢١]) سورة فاطر، الآية ٤٤.

([٢٢٢]) سورة الإنسان، الآية ٣٠ .

([٢٢٣]) سورة الأنعام، الآية ٣٩ .

([٢٢٤]) سورة يس، الآية ٨٢ .

([٢٢٥]) رواه مسلم، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، ح ٢٦٥٤.

([٢٢٦]) سورة الزمر، الآية ٦٢ .

([٢٢٧]) سورة فاطر، الآية ٣ .

([٢٢٨]) سورة الروم، الآية ٤٠.

([٢٢٩]) سورة الصافات، الآية ٩٦ .

([٢٣٠]) رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٧٣، وابن أبي عاصم في السنة ٣٥٧، ٣٥٨، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٨١/٤ ، ح ١٦٣٧.

([٢٣١]) سورة التوبة، الآية ١٠٥

([٢٣٢]) جزء من حديث سيأتي تخريجه.

([٢٣٣]) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٨/ ٤٤٩، ٤٥٩، وأعلام السنة المنشورة ص ١٣٩، ١٤١.

([٢٣٤]) سورة الحديد، الآية ٢١.

([٢٣٥]) الشريعة، ص١٥٢ .

([٢٣٦]) سورة الحديد، الآية ٢٢ .

([٢٣٧]) سورة التوبة، الآية ٥١ .

([٢٣٨]) سورة آل عمران، الآية ١٥٤.

([٢٣٩]) رواه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، ح ٢٦٤٨ .

([٢٤٠]) سورة التغابن، الآية ١١ .

([٢٤١]) انظر تفسير القرآن العظيم ٣٧٥/٤ .

([٢٤٢]) شرح الأربعين حديثاً النووية ص ٥٥ .

([٢٤٣]) سبق تخريجه.

([٢٤٤]) سورة الليل، الآيات ٥□٧ .

([٢٤٥]) أعلام السنة المنشورة ص ١٣٤.

([٢٤٦]) سيأتي تخريجه بعد قليل .

([٢٤٧]) رواه ابن ماجة، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، والترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في الأدوية، ح ٢٠٦٥ ، وقال هذا حديث حسن صحيح.

([٢٤٨]) انظر أعلام السنة المنشورة ص ١٣٤□١٣٥ .

([٢٤٩]) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ١٢١ ، ٧٨١ .

([٢٥٠]) رواه الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره، ح ٢١٤٤، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٤٤٦/٢ ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ح ٢٤٣٩ .

([٢٥١]) نور الاقتباس ص ٤٦ ،

([٢٥٢]) المصدر السابق ص ٤٧

([٢٥٣]) رواه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله، ح ٢٦٦٤ .

([٢٥٤]) انظر شرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥٥ ، وبهجة الناظرين شرح رياض الصالحين ١٣٦/١ .

([٢٥٥]) انظر شرح الأربعين حديثاً النووية ص ٥٥.

([٢٥٦]) سورة الحديد، الآية ٢٢ .

([٢٥٧]) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب في القدر ، ح ٤٧٠٠ ، والترمذي في كتاب القدر ، ح ٢١٥٥ ، وأحمد ٣١٧/٥ ، وانظر صحيح سنن الترمذي ٤٥٠/٢ ح ٢١٥٥.

([٢٥٨]) رواه مسلم في كتاب القدر، باب احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، ح ٢٦٥٣.

([٢٥٩]) أخرجه أحمد في المسند ١٩٧/٥ ، وابن أبي عاصم في السنة ح ٣٠٤ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٧٧٤/٢ ح ٤٢٠١ .

([٢٦٠]) سبق تخريجه.

([٢٦١]) رواه الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء لا عدوى ولا هامة ولا صفر، ورواه أحمد ٤٤٠/١ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٤٤٦/٢ ح ٢١٤٣.

([٢٦٢]) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٤٥□٣٤٨ بتصرف يسير .

([٢٦٣]) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، ح ٣٤٩، ومسلم كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، ح ٢٦٣ .

([٢٦٤]) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ح ٣٢٠٨، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ، ح ٢٦٤٥ .

([٢٦٥]) سورة الانفطار، الآيات ١٠□١٢ .

([٢٦٦]) علقه البخاري في صحيحه، في كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق، وأخرجه أبو داود في كتاب الحدود، باب: في المجنون يسرق، أو يصيب حداً ، ح ٤٣٩٩ ، والترمذي في كتاب الحدود، باب: ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد، ح ١٤٢٣ ، وابن ماجة، كتاب الطلاق، باب: طلاق المعتوه والصغير، ح ٢٠٤٢ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ١١٧/٢ ، ح ١٤٢٣.

([٢٦٧]) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٤٥ .

([٢٦٨]) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٢٧٥/٢ و ١٣٩/١٦ ، ومنهاج السنة النبوية ٣٦١/١، ٣٦٢ .

([٢٦٩]) رواه ابن أبي عاصم في السنة ، ح ١٠٨ ، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/٩ ، وذكره

الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٥٧/١ ح ١٣٣ .

(**[٢٧٠]**) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٥٨/١ .

(**[٢٧١]**) سبق تخريجه.

(**[٢٧٢]**) سبق تخريجه.

(**[٢٧٣]**) سورة الأعراف، الآية ١٧٢ .

(**[٢٧٤]**) الحديث رواه الإمام أحمد ٢٧٢/١ ، وابن أبي عاصم ٢٠٢ ، و صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ح ١٦٢٣.

(**[٢٧٥]**) رواه أبو داود في كتاب السـنة ، باب في القدر ، ح ٤٧٠٠ ، والترمذي في كتاب القدر ، ح ٢١٥٥ ، واحمد ٣١٧/٥ ، وانظر : صحيح سنن الترمذي ٤٥٠/٢ ، ح٢١٥٥ .

(**[٢٧٦]**) ورواه مسلم في كتاب القدر ، باب احتجاج آدم وموسى عليهما السلام ، ح٢٦٥٣ .

(**[٢٧٧]**) سورة الدخان، الآيتان ٤ ، ٥.

(**[٢٧٨]**) سورة الرحمن، الآية ٢٩.

(**[٢٧٩]**) سورة الجاثية، الآية ٢٩.

(**[٢٨٠]**) أعلام السنة المنشورة ص ١٣٣.

(**[٢٨١]**) انظر جامع العلوم والحكم، ص ٢٥٢.

(**[٢٨٢]**) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ٢٣٢/١.

(**[٢٨٣]**) سبق تخريجه.

(**[٢٨٤]**) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب رقم (٩)، ح ٣٣٧٩، والحاكم ٥٤٤/١، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٤٠/٢ ح ٥٩٣.

(**[٢٨٥]**) سورة الصافات، الآيات ١٣٩ - ١٤٧.

(**[٢٨٦]**) جامع البيان في تفسير القرآن ٦٤/٢٣.

(**[٢٨٧]**) انظر تفسير القرآن العظيم ٢٢/٤.

(**[٢٨٨]**) انظر البداية والنهاية ٢١٩/١.

(**[٢٨٩]**) انظر المصدر السابق، الصفحة نفسها .

(**[٢٩٠]**) سورة يونس، الآية ٩٠.

(**[٢٩١]**) سورة يونس، الآية ٩١.

(**[٢٩٢]**) انظر تفسير القرآن العظيم ٤٢١/٢.

(**[٢٩٣]**) سورة الطلاق، الآيتان ٢ ، ٣.

(**[٢٩٤]**) انظر دقائق التفسير ٨/٥□١٠ ، وتفسير القرآن العظيم ٣٨٠/٤.

(**[٢٩٥]**) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٨٠٦.

(**[٢٩٦]**) انظر المصدر السابق، الصفحة نفسها .

(**[٢٩٧]**) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩.

(**[٢٩٨]**) سورة فصلت، الآيات ٣٠□٣٢ .

(**[٢٩٩]**) سورة الأحقاف، الآيتان ١٣□١٤ .

(**[٣٠٠]**) انظر تفسير القرآن العظيم ١٠١/٤.

(**[٣٠١]**) جامع البيان في تفسير القرآن ٧٣/٢٤ ، ٧٤.

(**[٣٠٢]**) المصدر السابق ١١/٢٦.

([٣٠٣]) سورة الحشر ، الآيتان ١٨ و ١٩ .

([٣٠٤]) سورة الطلاق ، الآيتان ٢ و٣ .

([٣٠٥]) سورة الجن ، الآية ١٦ .

([٣٠٦]) سورة المائدة ، الآية ٦٦ .

([٣٠٧]) انظر : تفسير القرآن العظيم ٧٢/٢.

([٣٠٨]) رواه ابن ماجة ، كتاب الفتن ، باب العقوبات ، ح ٤٠١٩ ، والحاكم ٥٤٠/٤، و صحح الألباني ، انظر : صحيح ابن ماجة ٣٧٠/٢ ، ح ٣٢٤٦ ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٢١٦ ، ٢١٧ ، ح ١٠٦ .

([٣٠٩]) رواه الحاكم ١٢٦/٢ ، والبيهقي ٣٤٦/٣ ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢١٩/١ ، ح ١٠٧ .

([٣١٠]) انظر : نص الحديث في صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، باب إذا اشترى شيء بغير إذنه فرضي ، ح ٢٢١٥ ، وفي صحيح مسلم ، كتاب الذكر ، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، ح ٢٧٤٣.

([٣١١]) انظر : شرح رياض الصالحين ٤٥٥/٢.

([٣١٢]) سورة آل عمران ، الآيتان ١٣٩ ، ١٤٠ .

([٣١٣]) سورة آل عمران ، الآية ١٤١ .

([٣١٤]) انظر : تفسير القرآن العظيم ٣٨٥/١ ، ٣٨٦.

([٣١٥]) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص ١١٧ .

([٣١٦]) سورة النساء ، الآية ١٠٤ .

([٣١٧]) انظر : تفسير القرآن العظيم ٥٢١/١.

([٣١٨]) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص ١٦٣.

([٣١٩]) سورة البقرة ، الآيات ١٥٥ □ ١٥٧ .

([٣٢٠]) انظر : شرح الأربعين حديثاً النووية ، ص ٥٥ ، ٥٦ ، وفتح المبين لشرح الأربعين ، ص ١٧٧ .

([٣٢١]) سورة النحل ، الآية ١٢٦ .

([٣٢٢]) سورة البقرة ، الآية ٢٤٩ .

([٣٢٣]) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

([٣٢٤]) رواه مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب المؤمن أمره كله خير ، ح ٢٩٩٩ .

([٣٢٥]) رواه الترمذي ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء ، ح ٢٣٩٦ ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء ، ح ٤٠٣١ ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٢٧٦ ، ح ١٤٦ ، وصحيح الجامع الصغير ٣٥١/١ ، ح ١٧٠٦ .

([٣٢٦]) سورة الأنفال ، الآية ٤٥.

([٣٢٧]) سورة الأنفال ، الآية ٦٦ .

([٣٢٨]) سورة البقرة ، الآية ٢٤٩ .

([٣٢٩]) سورة آل عمران ، الآية ١٢٥.

([٣٣٠]) سورة آل عمران ، الآية ٢٠٠.

([٣٣١]) رواه البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب لا تمنوا لقاء العدو ، ح ٣٠٢٦ .

([٣٣٢]) سورة آل عمران ، الآية ١٨٦.

([٣٣٣]) رواه الترمذي ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء ، ح ٢٣٩٨ ، وقال

الترمذي : " هذا حديث حسن صحيح" ، ورواه ابن ماجة ، كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء ، ح ٣٢٤٩ ، وانظر صحيح سنن ابن ماجة ٣٧١/٢ ، ح ٤٠٢٣ .

(**[٣٣٤]**) سورة السجدة ، الآية ٢٤ .

(**[٣٣٥]**) انظر : الاستقامة ٢٦٠/٢ □ ٢٦٣.

(**[٣٣٦]**) سورة الأنفال ، الآية ٤٠ .

(**[٣٣٧]**) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٢٨٢ .

(**[٣٣٨]**) سورة الزمر ، الآية ١٠ .

(**[٣٣٩]**) سورة الحج ، الآيتان ٣٤ ، ٣٥ .

(**[٣٤٠]**) سورة البقرة ، الآية ١٧٧ .

(**[٣٤١]**) سورة محمد ، الآية ٣١ .

(**[٣٤٢]**) رواه البخاري ، كتاب الزكاة ، باب الاستعطاف في المسألة ، ح ١٤٦٩ ، وفي الرقاق ، باب الصبر عن محارم الله ، ح٦٤٧٠ .

(**[٣٤٣]**) رواه البخاري تعليقاً مجزوماً به في كتاب الرقاق ، باب الصبر عن محارم الله ، وقال ابن حجر : "وقد وصله أحمد في كتاب الزهد بسند صحيح عن مجاهد قال : قال عمر" ، انظر فتح الباري ٣٠٣/١١ ، وكتاب الزهد ص ١١٧ .

(**[٣٤٤]**) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب زيارة القبور ، ح ١٢٨٣ .

(**[٣٤٥]**) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٤٩/٣ ، ١٥٠.

(**[٣٤٦]**) انظر المصدر السابق ص ١٥٠ .

(**[٣٤٧]**) انظر فتاوى الشيخ محمد الصالح العثيمين ١/ ٦١.

(**[٣٤٨]**) انظر المصدر السابق ، ونور الاقتباس ص٥٥ .

(**[٣٤٩]**) مدارج السالكين بين منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) ٢٥٦/١.

(**[٣٥٠]**) انظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، ص ٢٧٨.

(**[٣٥١]**) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(**[٣٥٢]**) سورة النمل ،آية ٦٢.

(**[٣٥٣]**) انظر شرح رياض الصالحين ٤٥٦/٢.

(**[٣٥٤]**) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٥٥٧ .

(**[٣٥٥]**)انظر فتح المبين لشرح الأربعين ص ١٧٨ ،وبهجة الناظرين ص ١٣٦ .

(**[٣٥٦]**) سورة الطلاق ،الآية ٣.

(**[٣٥٧]**) سورة الشورى ، الآية ٢٨.

(**[٣٥٨]**) سورة الروم ، الآيتان ٤٨□٤٩.

(**[٣٥٩]**) انظر نور الاقتباس ص ٦٥ ، وجامع العلوم والحكم ص ٤٩١.

(**[٣٦٠]**) سبق تخريج حديث هذه القصة .

(**[٣٦١]**) انظر القصة بتمامها في صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه ، ح ٢٢١٧.

(**[٣٦٢]**) رواه البخاري ، كتاب الجمعة ، باب رفع اليدين في الخطبة ، ح ٩٣٢.

(**[٣٦٣]**) انظر مناقب الشافعي ٣٦٢/٢.

(**[٣٦٤]**) سورة الشرح ، الآيتان ٤□٥ .

(**[٣٦٥]**) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٨٥٩ ، وانظر تفسير القرآن العظيم ٥٢٧/٤ .

([٣٦٦]) سورة الطلاق، الآية ٧.

([٣٦٧]) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٨٠٨.

([٣٦٨]) انظر تفسير القرآن العظيم ٣٨٤/٤.

([٣٦٩]) أخرجه الطبراني في الأوسط ٤١/٢ ، والبيهقي في الدلائل ١٠٥/٦ ، والبزار في مسنده ٤/ ٢٦٧ ، وأحمد في مسنده ٥١٣/٢ ، ٤٢١ برواية أخرى، وانظر مجمع الزوائد ٢٠٧/١٠ ، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٠٥٢/٦، ١٠٥١ ، ح ٢٩٣٧ .

([٣٧٠]) سورة يوسف، الآية ١١٠.

([٣٧١]) سورة البقرة، الآية ٢١٤.

([٣٧٢]) انظر تفسير القرآن العظيم ٢٣٩/١ ، ٤٧٨/٢ ، ودقائق التفسير ٣٠١/٣، ٣٠٣ .

([٣٧٣]) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٧٩.

([٣٧٤]) سورة يوسف، الآية ٨٣.

([٣٧٥]) سورة يوسف، الآية ٨٧.

([٣٧٦]) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٣٦٦.

([٣٧٧]) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل، ح ٦٣٤٠ ، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، ح ٢٧٣٥.

([٣٧٨]) انظر نور الاقتباس ص ٧٧، ٧٦، وجامع العلوم والحكم ص ٤٩٥، ٤٩٤.

المصادر والمراجع

١- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، ناصر الدين الألباني، المكتب الإسـلامي، بـيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

٢- أسباب الـ ول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، عالم الكتب، بيروت.

٣- الاستقامة، أبو العباس أحمد بن تيمية، أشرف على طباعته جامعة الإمام، الرياض، الطبعـة الأولى ١٤٠٤هـ.

٤- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، المطابع الأهلية، الريـاض، ١٤٠٣ هـ.

٥- أعلام السنة المنشورة، حافظ بن أحمد الحكمي، مكتبة السوادي، جدة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

٦- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة ١٩٧٦م.

٧- إيضاح المعاني الخفية في الأربعين النووية، محمد تاتاي، دار الوفاء المنصورة بمصـر، الطبعـة الأولى ١٤١٨هـ.

٨- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، مطبعة كروستان، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٤٨هـ.

٩- جة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، السعـدي، مكتبـة المعـارف، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.

١٠- جة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعـة الأولى ١٤١٥هـ.

١١- تحفة الأحوذي شرح جامع الترمـذي، محمد عبـد الـرحمن بـن عبـد الرحيـم المباركفـوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

١٢- التحفة الربانية في شرح الأربعين حديثاً النووية، إسماعيل بن محمد الأنصاري، مكتبـة الإمـام

الشافعي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

١٣- تفسير الفاتحة، محمد بن عبد الوهاب، مكتبة الحرمين، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.

١٤- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٦هـ.

١٥- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ.

١٦- جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.

١٧- جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة ١٤١٩هـ.

١٨- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩- خلق أفعال العباد، محمد بن إسماعيل البخاري، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

٢٠- دقائق التفسير، أبو العباس أحمد بن تيمية، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ.

٢١- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد بن علان، نشر وتوزيع إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

٢٢- ابن رجب الحنبلي وأثره في توضيح عقيدة السلف، عبد الله الغفيلي، دار المسير، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٣- الرسالة التدمرية، أبو العباس أحمد بن تيمية، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠ هـ.

٢٤- رياض الصالحين، أبو زكريا يحيي بن شرف النووي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٢٥- الزهد، أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

٢٦- الزهد، عبد الله بن المبارك، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٧- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٢ هـ.

٢٨- السنة، لابن أبي عاصم، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

٢٩- سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، دار الدعوة، إستانبول، ١٤٠١هـ.

٣٠- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الدعوة، إستانبول، ١٤٠١هـ.

٣١- سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة، دار الدعوة، إستانبول، ١٤٠١هـ.

٣٢- السنن الكبرى، البيهقي، دار الفكر.

٣٣- سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، دار الدعوة، إستانبول، ١٤٠١ هـ.

٣٤- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ.

٣٥- شرح الأربعين حديثاً النووية، ابن دقيق العيد، مؤسسة الطباعة، جدة، ١٤٠٣هـ.

٣٦- شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

٣٧- شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٠ هـ.

٣٨- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣ هـ.

٣٩- الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ.

٤٠- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت.

٤١- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الدعوة، إستانبول، ١٤٠١هـ.

٤٢- صحيح الترغيب والترهيب للمنذري، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

٤٣- صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.

٤٤- صحيح ابن حبان، تحقيق محمد حمزة، دار الكتب العلمية.

٤٥- صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٤٦- صحيح سنن ابن ماجة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٤٧- صحيح الكلم الطيب لابن تيمية، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ.

٤٨- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن حجاج القشيري، دار الدعوة، إستانبول، ١٤٠١هـ.

٤٩- صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا يحيي بن شرف النووي، نشر وتوزيع إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

٥٠- عقيدة المسلمين والرد على الملحدين والمبتدعين، صالح بن إبراهيم البليهي، المطابع الأهلية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٥١- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.

٥٢- فتح المبين لشرح الأربعين، أحمد بن حجر الهيتمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ.

٥٣- الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين حديثاً النووية، إبراهيم بن مرعي الشبرخيتي، دار الفكر.

٥٤- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، عبد الرؤوف المناوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية

١٣٩١هـ.

٥٥- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، محمد الصالح العثيمين، مطابع السلمان، بريدة، ١٤٠٥هـ.

٥٦- قواعد وفوائد من الأربعين النووية، ناظم محمد سلطان، دار الهجرة، المملكة العربية السعودية، الطبعة السادسة، ١٤١٩هـ.

٥٧- القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد بن صالح العثيمين، دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

٥٨- كتاب الصلاة وحكم تاركها، ابن قيم الجوزية، إدارة ترجمان السنة، باكستان.

٥٩- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شيبة، الدار السلفية، الهند، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

٦٠- لسان العرب المحيط، ابن منظور، دار لسان العرب، بيروت.

٦١- اللمعة في الأجوبة السبعة، شيخ الإسلام ابن تيمية، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ.

٦٢- متن الأربعين النووية، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، ضبط ألفاظها وشرح غريبها محيي الدين مستو، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ.

٦٣- ا السنية في الكلام على الأربعين النووية، أحمد بن حجازي الفشني، [وهو امش شرح الشبرخيتي].

٦٤- مجمع الزوائد، الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.

٦٥- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب ابن قاسم، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

٦٦- ﴿مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين﴾، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ.

٦٧- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري، مكتبة إمدادية، باكستان.

٦٨- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله النيسابوري الحاكم، مكتبة النصر الحديثة، الرياض.

٦٩- المسند، أحمد بن حنبل الشيباني، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٧٨م.

٧٠- المسند، الحميدي، تحقيق الأعظمي، عالم الكتب، بيروت.

٧١- مسند أبي يعلى، أبو يعلى الموصلي، تحقيق حسين سليم، دار المأمون، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٧٢- معالم الت يل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ هـ.

٧٣- المعجم الكبير، الحافظ أبو القاسم الطبراني، مطبعة الوطن العربي في بغداد، تحقيق حمدي عبد ا يد السلفي.

٧٤- مناقب الشافعي، البيهقي، تحقيق أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٣٩١هـ.

٧٥- منهاج السنة، أبو العباس أحمد بن تيمية ، أشرفت على طباعته جامعة الإمام، الطبعة الأولى،

١٤٠٦هـ.

٧٦- نور الاقتباس، ابن رجب الحنبلي، مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٧٧- الوافي في شرح الأربعين النووية، مصطفى البغا ومحيي الدين مستو، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة العاشرة، ١٤١٧هـ.